

مدرسة الثوار

مذكرات من وراء القضبان

على الشواشي

٢٠٠١

~١~

الكتاب : مدرسة الثوار

الكاتب : علي الشوباشي

تصميم الغلاف : محمد محسن

تنسيق داخلي : هبة خليل

الطبعة : الأولى

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٥٤٣٨

التسجيل الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٧٨٣-٠١-٠

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي - الدور الأول 36 - ش عبد الحميد الديب - شبرا مصر

01550096215 – 0222017260

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

" السجن مدرسة الثوار ... "

فلاديمير إيليتش لينين

إهداء ...

إلى ذكرى جميع الشهداء ... الذين قضوا نجبتهم فى
السجن ... سواء بسبب أمراض أمت بهم ولم تعالج ... أو
بسبب سوء المعاملة أو تحت تأثير التعذيب ...
إلى ذكرى شعبان حافظ ... وشهدى عطية الشافعى

...

والدكتور فريد حداد ... ولويس اسحق ...
وعبد القادر مفتاح ... وجميع الآخرين ...

مقدمة

عندما قرأت ، وأنا مازلت طالبا في الجامعة ، عبارة لينين " السجن مدرسة الثوار " ، كان أول ما تبادر إلى ذهني هو أن قائد أول ثورة شيوعية استطاعت الاستيلاء على السلطة في العالم ، يقصد بتلك العبارة أن السجن اختبار لصلابة الثائر ، وصقل لمقدرته على التحمل والمقاومة ، ولا شيء أكثر من ذلك . لكنني أدركت كم كان فهمي سطحيًا بعد تجربة السجن التي مررت لها مع عدد كبير من الشيوعيين والتقدميين واليساريين ، من أول يناير ١٩٥٩ وحتى مايو ١٩٦٤ .

وسأحاول أن أوضح للقارئ كيف أن عبارة لينين أبعد أثرا بكثير مما تصورته قبل هذه التجربة ، التي كتب عنها الكثيرون قبلي . وقد حفزني إلى الكتابة في هذا الموضوع ، أن جميع من كتبوا عن تجربة السجن ، تحدثوا طويلا عن ظروف الحياة اليومية للسجن ، وبصفة خاصة عن اللحظات - التي طالت أحيانا -

القاسية إلى حد بعيد ، وعن التعذيب (بشيء من المبالغة أحيانا كثيرة) .

وربما كان الصديق العزيز محمود السعدنى هو الوحيد الذى رسم هذه التجربة التى مر بها معنا فى عدد من أعماله ، وبصفة خاصة فى " الطريق إلى ذمش " صورة كاريكاتيرية ، أعترف أن وقائعها قريبة جدا من الحقيقة ، وإن أضفى عليها أسلوبه الساخر الرشيق بعد أن نزع عنها الصبغة الدرامية التى حاول الكتاب الآخرون إضفاءها عليها .

لكنهم جميعا أغفلوا تقريبا - إلا من إشارات عابرة على ما أذكر - الحديث عن جانب هام جدا من الصورة ، ألا وهو ألوان النشاط التعليمى والثقافى والإعلامى والرياضى والترويحي ، ونشاط تنظيم الأحوال المعيشية ، التى كان المسجونون يقومون بها ، فى ظروف كثيرا ما كانت صعبة ، وذلك على الرغم من الأهمية الكبيرة لألوان النشاط هذه على ما أظن .

وإنصافا لمحمود السعدنى ، فإنه لم يكن يستطيع تناول الجانب الأول فيما كتبه عن السجن ، وبصفة خاصة فى " الطريق إلى

ذمش " ، وذلك بسبب بسيط ، وهو أنه - لحسن حظه - لم يبق في السجن سوى بعض العام ، فهو في الحقيقة لم يكن شيوعيا في يوم من الأيام ، وإنما حامت حوله شبهات رجال الأمن لواقعة كتب هو قصتها تفصيلا في كتابة المذكور ، ولا مجال لذكرها هنا . وعندما اكتشفت السلطات هذا الخطأ بعد شهور طويلة ، لكنها لم تتجاوز العام ، تم الإفراج عنه . وبذلك فهو لم يشيد الجانب الأكبر مما سأرويهِ هنا .

وهكذا ، فقد قررت أن أكتب عن هذا الجانب الذي لم أجدهِ في كتابات الزملاء الآخرين حتى تكتمل الصورة ، خاصة وأن هذا الجانب هو الذي لم نكن فيه ، نحن المسجونين ، مجرد عنصر سلبي من عناصر الصورة ، أى مجرد متلقين ومستسلمين أو مقارمين لما يحدث لنا ، بل كنا نشكل عنصرا إيجابيا فعالا ، يجعل من الظروف الصعبة التي نعيشها فرصة لا نضيعها ، حتى تكتسب مزيدا من الثقافة ومن المعرفة ، بقدر ما تسمح به الأحوال ، لكي لا تكون فترة السجن فترة ضائعة من حياتنا .

وأرجو ألا يسيء القارئ فهم ما قصدته من هذا الذى سأقصه عليه ، فيظن أن السجن مكان جميل ، يقضي فيه المسجون أو المعتقل أوقاتا سعيدة هانئة .

فالسجن في جميع الأحوال ، مكان يفتقد فيه الإنسان حريته وشعوره بالأمان ، حتى في أفضل حالاته ، ناهيك عن فترات سوء المعاملة والتعذيب . وإننى سأكتب هنا عن مجهود خارق كان المسجونون يبذلونه ليقاوموا بالتحديد ، الظروف غير الإنسانية التى كانوا يوجدون فيها . ومن هنا يبدو الجانب المشرق من التجربة . وأرجو ألا يشعر القارئ الذى لم يدخل سجنا ، أنه يفتقد تجربة جميلة ، ويتمنى أن يكون قد خبرها ، فالسجن تجربة لا يتمنى من عاشها أن يحيها مرة أخرى ، ولا يتمناها حتى لأعدى أعدائه .

وقد كنت مر في عام ١٩٧٣ ، مدعوا على العشاء في إحدى ضواحي باريس الجميلة ، التى تشكل الخضرة والأشجار الباسقة معظم أراضيها ، عند جان ماري درو ، أحد كبار مخرجي التليفزيون الفرنسي . وكان معنا رسام من شيلى ، لست أذكر اسمه الآن ، هرب من بلاده ولجأ إلى فرنسا بمجرد قلب

الأمريكيين لنظام حكم سلفادور الليندي ، وآخرون . ووجه إلى درو ، الذي كنت قد عرفته في القاهرة أثناء تصويره أحد أفلامه فيها ، ونشأت بيننا صداقة عرف خلالها جانبا من حياتي ، سؤالا عن تجربة السجن ، لأن الرسام قد اجتاز نفس التجربة في بلده . فحكيت لهم بعضا مما سأرويهِ في هذا الكتاب ، فإذا بهم يستزيدون ، حتى أصبحت المتكلم الوحيد في تلك السهرة . وفي النهاية ، طلب مني درو أن أكتب هذه التجربة ، قائلا إنه سينشرها في كتاب ، ثم يكتب لها سيناريو ويخرج عنه فيما للتليفزيون الفرنسي . واعتذرت له قائلا إن هناك الآن حملة في مصر على عبد الناصر وعلى فترة رئاسته ، بالإضافة إلى أن أجهزة الإعلام الغربية ، لم تتوقف خلال العشرين عاما الماضية على وصفه بالدكتاتور النازي . وقلت له إنني كنت أعارض بعض سياسات عبد الناصر ، ولذلك عرفت السجن ، لكنني لست مستعدا على الإطلاق أن أشارك في تقديم مبررات إضافية لمن اعتبرهم أعدى أعداء أفكاري ، لمهاجمة نظام لم أكن أعاديه يوما ، وإن اختلفت مع بعض ممارساته . وقد أسعدني أن جميع الحاضرين استصوبوا موقفي وأيدوا قراري هذا .

والغريب ، أن الرسام اللاتيني رفض ، بعد أن توقفت عن الحديث ، أن يحكي لنا عن تجربته في سجن بلده ، قائلاً إنه لا يستطيع أن يحكي تجربة ليس لها مثل القوة والثراء الذين تتمتع بهما تجربة الشيوعيين في السجون المصرية .

وأود أن أضيف على هذا المقدمة أنني أكتب هذه التجربة الفريدة من الذاكرة . والمهم فيها - حسبما أعتقد - هو التجربة ذاتها . لذلك فإنني سأنسى قطعاً أن أشير إلى أسماء الكثيرين ممن شاركوا فيها . وهذا لن يكون متعمداً أو لأسباب شخصية أو غيرها ، وإنما بسبب الذاكرة فقط . فأنا أحكي عن تجربة حدثت منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، ومن المستحيل أن أتذكر كل تفصيلاتها أو أسماء كل من شارك فيها . لذلك أرجو ألا يشعر أي زميل أكون قد نسيت أن أذكره ، أنني أهملت ذكره عمداً ، فتلك هي حدود ذاكرتي . وإذا استطاع أحدهم أن يضيف ، بالطريقة التي يراها مناسبة ، ما نسيت ، فإنني أكون ممتناً له .

كذلك ، فغنني سأكتب كل ما أتذكره ، حتى لو كان مما لا يحب البعض أن يكتب عنه ، لأنني أريد أن تكون الصورة مكتملة - حسب ما تعيه ذاكرتي - بدون تزويق أو إغفال شيء عمدا .

وهناك أخيرا موضوع يحسن شرحه قبل أن ندخل في صلب هذا الكتيب . فسيجد القارئ أنني أتحدث عن " المسجونين والمعتقلين " دون تمييز تقريبا . وقد يدق الفارق بين الوصفين على القارئ الذى يعرف هذا العالم ، لذلك فلا بد من توضيحه . فالمسجونون هم من صدرت في حقهم أحكام محددة بالسجن أو بالأشغال الشاقة (وفي الواقع ليس هناك أي فارق في التطبيق - بالنسبة للسياسيين - بين العقوبتين) من إحدى المحاكم ، سواء الحاكم العادية أو محاكم أمن الدولة العليا أو المحاكم العسكرية . أما المعتقلون فهم من قد صدر قرار من الحاكم العسكري العام ، أو من رئيس الجمهورية أيام فترة سريان قانون حماية الثورة (الذى ألغي منذ ذلك الحين) ، بإعتقالهم بدون توجيه أي تهمة لهم أو عرضهم علي أي جهة من جهات التحقيق ، ولمدة غير محددة ، وقد تكون بضعة شهور أو بضع سنوات . ويحدد قرار الاعتقال - الذى يكون جماعيا عادة -

المكان الذي يتم احتجاز من يشملهم فيه ، أو يترك لوزير الداخلية تحديدا هذا المكان . وكان يمكن لوزير الداخلية أن يقرر أن يكون مكان الاحتجاز هو أحد السجون العمومية ، كما حدث عام ١٩٥٩ ، حيث نقل المعتقلون من معتقل القلعة إلى سجن الواحات الخارجة ، وهو سجن عمومي يتبع مصلحة السجون .

وقد كان المسجونون في سجن الواحات ، يسكنون في عنبر والمعتقلون في عنبر آخر . وكانت لائحة مصلحة السجون تطبق علي الأولين . أما المعتقلون ، فكانت تصدر بشأن معاملتهم أوامر خاصة من المباحث العامة ، وكان يمكن تغيير هذه الأوامر في أي لحظة بدون أي رقابة من أي جهة كانت ، علي عكس لائحة مصلحة السجون ، التي لا بد أن تصدر أو يتم تعديلها بقرار واضح ومنشور في الجريدة الرسمية .

لكن المشكلة منذ عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٦٤ ، هي أن المسجون الذي ينهي مدة عقوبته ، كان يصدر بشكل تلقائي أمر اعتقال خاص به ، وبذلك يتحول من مسجون إلى معتقل بين يوم وليلة، ويبقى - عادة - في نفس السجن ، أو يتم ترحيل من

انتهت مدة الحكم الصادر عليه إلى القاهرة تمهيداً لإنهاء الإجراءات الرسمية للإفراج عنه ، واستصدر قرار خاص باعتقاله ، ثم يعود ثانية إلى سجن الواحات الخارجة وقد تغير وضعه " القانوني " من مسجون إلى معتقل .

كذلك فإن تعبير " المستقلين " في هذا الكتاب يعني من لم يكونوا أعضاء في أي تنظيم من التنظيمات الشيوعية الموجودة في السجن ، إما لأنهم لم يكونوا يوماً أعضاء في أي تنظيم ، مثل الأستاذ محمود السعدني و (المرحوم) الدكتور لويس عوض ، وألفريد فرج و (المرحومان) لطف الله سليمان ، وسعد التائه ، وغيرهم كثيرون . وإما لأنهم كانوا قد توقفوا عن كل نشاط تنظيمي منذ فترات طويلة ، مثل الدكتور فائق فريد والأستاذ علي الشلقاني و (المرحوم) عبد السلام زكي مبارك ، لكن سلطات الأمن اعتقلتهم علي الرغم من ذلك ، إما لأنها لم تعرف أنهم توقفوا عن نشاطهم ، وإما لأسباب أخرى لا يعرفها غيرهم .

وفي ختام المقدمة ، أريد أن أوجه شكري العميق للصديق العزيز المهندس فوزي حبشي على ملحوظاته القيمة على مخطوط الكتاب ، والتي أخذت بها جميعاً ، وعلى تصويبه لبعض ما كان

قد جاء له من هنات وأخطاء . كما أشكره أيضا على الصور التي أمدني بها لكي يرى القارئ بنفسه الأشياء التي تحدثت عنها في الكتاب .

المؤلف

جامعة الشهيد شعبان حافظ

تصور يا عزيزي القارئ " جامعة " تبدأ بفصول لتعليم الحروف الأبجدية الإنجليزية والفرنسية لمن لا يعرفون شيئاً هن هاتين اللغتين ، وتنتهي بدروس في الرياضة البحتة ، طالبها مهندسين ، بل وأحدهما أستاذ مساعد للمهندسة الإلكترونية ! أما مرتبات الأساتذة فكانت سيجارة واحدة من كل حصة يقومون بتدريسها !

نعم ، كان سجن الواحات الخارجة هو المكان الذي نشأت فيه هذه " الجامعة " الغربية عام ١٩٦٢ .

وقبل أن نتحدث عن هذه " الجامعة " وعن نظام التدريس فيها ، نقول كلمة صغيرة عن اسمها .

قرر المسئولون السياسيون في جميع التنظيمات الموجودة في سجن الواحات الخارجة ، بالإضافة إلى ممثلين عن المستقلين في إجتماع ضمهم جميعاً ، إنشاء هذه " الجامعة " وإطلاق اسم الشهيد شعبان حافظ عليها .

وشعبان حافظ كان أحد الأعضاء القياديين لأول حزب شيوعي مصري ، تأسس عام ١٩٢٣ بزعامة محمود حسني العرابي والمحامي أنطون مارون . وقد أُلقي القبض على شعبان حافظ مع باقي أعضاء الحزب عام ١٩٢٤ وحكم عليه بالحبس لمدة ستة أشهر ، ثم أُلقي القبض عليه مرة أخرى عام ١٩٢٥ ، حيث حوكم وصدر ضده حكم بالسجن ثلاث سنوات . وفي عام ١٩٣٠ ، قامت حكومة إسماعيل صدقي ، التي ألغت دستور ١٩٢٣ ، بإيعاز من الملك فؤاد ، بحملة واسعة للقبض على الشيوعيين ، لكن شعبان حافظ نجح في الهرب إلى فلسطين - التي كانت تحت الانتداب البريطاني وقتها - على ظهر فرس ، ومنها توجه سرا إلى موسكو ، حيث دخل طالبا في مدرسة الكادر للحزب الشيوعي السوفييتي . ولما عاد إلى مصر عام ١٩٣٢ ، كانت الحكومة المصرية قد نجحت في القضاء تماما على الحزب الشيوعي المصري الأول ، بعد أن توفي أنطون مارون في سجن الحضرة بالإسكندرية بعد إصابته بمرض السل ، ورفض السلطات السماح بتقديم أي علاج له ، وبعد أن اعترف محمود

العراقي على زملائه ووافق على العمل مع أجهزة الأمن . واضطر شعبان حافظ غلى التوقف عن أي نشاط سياسي .

وفي أواخر الخمسينات ، انضم شعبان حافظ إلى أحد التنظيمات الشيوعية الجديدة التي تأسس معظمها في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات . وألقي القبض عليه في أول يناير عام ١٩٥٩ بأمرا اعتقال ، وتوفي في السجن عام ١٩٦٢ .

كان قد أصيب بأزمة قلبية في سجن الواحات ولم يعالج منها بمعنى كلمة العلاج ، بل إن الزملاء الأطباء ، حمزة السيوني وشريف حتاتة و (المرحومان) مختار السيد وممدوح الجندي ، وشكري عازر (الذي كان يطلق عليه لقب " دكتور إلا يوم " ، لأنه كان قد ألقى القبض عليه يوم كان يستعد لآخر يوم في امتحان التخرج من القصر العيني) والصيدليان (المرحوم) محمود القويسني وسعد بهجت ، ساعدوه على تجاوز الأزمة بما بين أيديهم من وسائل بدائية ، بعد أن رفضت المباحث العامة نقله غلى مستشفى به إمكانيات علاجه .

وكان شعبان حافظ قد ارتبط بصداقة وثيقة مع (المرحوم) مصطفى طيبة ، الذي كان قد صدر ضده حكم بالسجن لمدة عشر سنوات عام ١٩٥٢ . وعندما انتهت المدة ، تقرر ترحيل مصطفى طيبة وزملائه الذين كان قد صدر عليهم حكم مماثل ، إلى القاهرة ، تمهيدا - كما تصورنا - للإفراج عنهم (والذي حدث هو أن مصطفى طيبة وزملاءه عادوا إلينا كمعتقلين بدون الإفراج عنهم بعد أقل من شهر واحد قضوه في سجن مصر) . وانفعل شعبان حافظ انفعالا شديدا وهو يودعه ، فقد ظن أنه سيستعيد حريته بعد عشر سنوات كاملة قضائها في السجن . وبمجرد تحرك سيارة السجن التي استقلها مصطفى طيبة وزملاؤه ، سقط شعبان حافظ وعيناه مغرورقتان بالدموع من شدة تأثره ، حيث أسلم الروح بعد نحو ثلاث دقائق ، على الرغم من المحاولات المستميتة التي بذلها زميلانا المعتقلان الدكتور حمزة البسيوني والدكتور شكري عازر ، اللذان كانا بالقرب منه ، لإنقاذه .

وقد تصرف مأمور السجن تصرفا شهما . فقد قرر إرسال جثمان الشهيد إلى أسرته في الإسكندرية على متن طائرة ، ووافق

على أن يطوف المسجونون والمعتقلون بنعشه داخل السجن في جنازة رمزية ، حيث لف نعشه ببطانية حمراء (رمزا لعلم الشيوعية الأحمر) ، وزملاؤه يرددون الأناشيد الثورية وسط دموعهم . وعندما تحركت السيارة التي حملت النعش إلى مطار الواحات ، كان هناك - بأمر من المأمور طبعا - حرس شرف من ستة من الجند ، أطلق كل منهم ثلاث رصاصات في الهواء تحية للفقيد ، بينما كان بروجي السجن يعزف لحن النوم ، وقد اصطف المأمور والضباط وأدوا له التحية العسكرية . وهكذا ، وبالرغم من كونه مسجونا ، فقد تم وداع جثمان شعبان حافظ بما يليق بمناضل مثله .

وتخليدا لذكراه ، أطلق اسمه على " الجامعة " .

وقد قرر المسئولون " إنشاء الجامعة " لكي تسد حاجة عدد كبير من الزملاء الذين كانوا يرون أنه يتعين عليهم ، في ظروف السجن ، أن يستفيدوا من معارف الآخرين من زملائهم . وكان عدد من الزملاء يقوم بالفعل قبل اتخاذ ذلك القرار ، بإعطاء بعض الدروس لأصدقائه الذين يريدون تعلم اللغات الأجنبية ، بصورة عشوائية . وكان قرار إنشاء الجامعة " قرار سياسيا هاما

، حتى يستفيد أكبر عدد من الزملاء من هذه الدروس ، وبصفة خاصة العمال والفلاحون حتى ، يخرجوا من السجن مسلحين بلغة أجنبية تساعدهم على تحصيل معلومات هامة في مجال عملهم ، وعلى فهم النشرات التي تصاحب الآلات التي يعملون عليها ، والتي يمكن أن تساعدهم قراءتها على حسن صيانتها والاهتمام بها ، كما تؤهلهم من من جهة أخرى للقيام بأدوار نقابية قيادية على مستوى البلد ، بل وعلى المستوى العالمي . وبذلك القرار السياسي الهام ، أصبح هذا النشاط منظما بصورة جدية .

كانت الدراسة في جميع الفصول تبدأ في تمام الساعة التاسعة صباحا ثلاث مرات في الأسبوع . وكان كل فصل يحتل زنزانة من زنازين أحد العنبرين اللذين يوجد فيهما المسجونون والمعتقلون الشيوعيون (وفي كل عنبر عشرون زنزانة ، تتسع كل منها لعدد يتراوح بين اثني عشر وخمسة عشر سجينا أو معتقلا) . وفي كل زنزانة خصصت لتلقى الحصص ، كانت توضع سيورة . وكان أحد الزملاء ، وهو محمد حسن جاد (الذي كان يعرف بين الزملاء بلقب " برق " ، نظرا لأن عيناه كانتا بارزتين بصورة

لافته للنظر) ، نجارا ، وقام بصنع هذه السبورات من الأخشاب التي تبقت بعد بناء عنابر السجن . وقد احتج مقاول البناء لدى المأمور عدة مرات ، قائلاً إن هذه الأخشاب ملكه ، وأن " برق " يسرقها . وعندما استفسر المأمور عن الأمر ، وعرف أن هذه الأخشاب تستخدم لصناعة سبورات للتدريس ، ضحك ، وصرف المقاول بكلمات رقيقة . وكانت السبورات متقنة الصنع ، إلى حد أنها كانت مثل مثيلاتها في أرقى المدارس . أما الطباشير ، فكان يتم صنعه من الجير الذي توجد منه كميات كبيرة في جميع السجون المصرية لطلاء الجدران بصورة منتظمة .

يتجمع " الطلبة " وأساتذتهم في الفصول إذن في التاسعة ، ويبدأ الدرس . ويمر المسئول عن تنظيم الجامعة على كل فصل ليعطى المدرس راتبه ، وهو سيجارة " بلمونت " كاملة ، حتى يدخلها أثناء الحصة إذا رغب في ذلك . فقد كان النصيب اليومي لكل مدخن من المسجونين والمعتقلين يتحدد وفقا للإمكانات المادية للجنة " الحياة العامة " التي تتولى إدارة المالية الجماعية للمسجونين والمعتقلين كما سيأتى . وكان هذا النصيب يتراوح يوميا بين سيجارتين وخمس سجائر (في أفضل الأحوال) . لذلك

فإن سيجارة كاملة كانت شيئا ذا قيمة كبيرة للمدخن . أما بالنسبة لغير المدخن ، فقد كان للسيجارة قيمتها أيضا ، فالسجائر هي العملة المعترف بها في جميع السجون المصرية منذ نشأتها وحتى اليوم ، إذ أن لائحة مصلحة السجون تحرم على المسجونين حمل نقود داخل السجن ، وإنما تسجل النقود التي معهم عند دخولهم السجن أو تلك التي ترد لهم بحوالات بريدية من الخارج في دفاتر السجن ، ويخصم منها ثمن ما يشتروه من بضائع من الكانتين . لكن ذلك لا يمنع المسجونين الأثرياء من تهريب النقود إلى السجن والتعامل به في العمليات الكبيرة التي لا تكفى السجائر لتسديدها . ولكي أضرب مثلا على ذلك ، فإن تجار المخدرات مثلا ، أو كبار الموظفين المحكوم عليهم بعقوبات بتهمة الاختلاس ، وغيرهم من الأثرياء ، كثيرا ما يشترون كميات من الحشيش لاستهلاكهم الشخصي ، لا يمكن تسديد ثمنها بالسجائر ، لذلك فإن معهم دائما نقود بوفرة . وأذكر بهذه المناسبة واقعة طريفة . فقد تم نقل من تبقى في السجن من الشيوعيين بعد أن تم الإفراج عن جميع المعتقلين في شهري مارس وإبريل عام ١٩٦٤ ، إلى سجون الأقاليم لفترة ثلاثة

أسابيع قبل تجميعنا في سجن مصر. وكنت ضمن المجموعة التي نقلت إلى سجن الزقازيق . ويوم وصولنا ، وجدنا سجانا كنا قد عرفناه في الواحات ، ونشأت بيننا وبينه علاقة طيبة . فقد كان شديد المرح خفيف الظل ، ويتمتع بذكاء شديد . ورحب بنا هذا السجان ترحيبا حارا .

وعند وقت إغلاق الزنازين ، فوجئنا به يمد يده لنا بلقافة صغيرة من الورق المفضض قائلا إنها " تحية بسيطة " . وعندما استفسرنا منه عما بها ، أجاب في بساطة شديدة " حنة حشيش على ما قسم " . وبجهد كبير اقنعناه أن الشيوعيين لا يتعاطون الحشيش ، وأننا نشكره على أية حال لنواياه الطيبة . وغضب أول الأمر معتقدا أننا نتكبر عليه ، لكننا نجحنا آخر الأمر في إقناعه بصدقنا ..

أما الشيوعيون ، فقد كان لديهم نقود أيضا لاستخدامها في عمليات تهريب ما يكتبونه من تحليلات سياسية أو كتب أو روايات أو رسائل إلى الخارج . فهذه العمليات كانت هي الأخرى تحتاج لنقود سائلة . وكان المدرس في معظم الأحيان ، يدخل

سيجارتته مع " تلاميذه " أثناء الحصة ، أي أن كلا منهم يتناول عدة " أنفاس " .

وعلى الرغم من علاقات الصداقة ، أو على الأقل الزمالة ، التي كانت تربط عادة بين المدرس وتلاميذه ، إلا أن الحصص كانت تحكمها الجدية والنظام . فالجميع ، مدرسين وتلاميذ ، كانوا يحرصون على أن يفيدوا أكبر فائدة من الوقت المتاح لهم لتلقى الدروس ، بحيث لا يضيعوا ولو عدة دقائق من وقت الحصة فيما لا طائل منه .

كان هناك فصلان للزملاء الذين لا يعرفون أى شىء عن اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، فكان التعليم فيهما يبدأ بالحروف الأبجدية . وكان معظم تلاميذ هذين الفصلين من الزملاء العمال والفلاحين . وعلى الرغم من صعوبة تعلم لغة أجنبية على رجال أصابت الكهولة بعضهم ، إلا أن الرغبة الشديدة في التعليم كانت تتغلب ، وكان تلاميذ ذلك الفصل يتقدمون بمعدلات كانت تدهش المدرسين أحيانا . ولم يكن هذا التقدم بكل تأكيد بنفس المعدل عند جميع التلاميذ ، فقد كان بعضهم يتقدم بصورة أسرع من زملائه . لكن المدرس كان يحاول دائما

أن يساعد من يتخلف خارج مواعيد الدروس حتى يلحق بالباقيين . وأظن أن عدد الذين توقفوا عن متابعة الدروس يأسا خلال عمر الجامعة ، أى لمدة أكثر من عامين ، لم يتجاوز اثنين أو ثلاثة أشخاص على أكثر تقدير .

وأما المستوى الثاني من تدريس اللغات ، فكان لمن نالوا قسطا من التعليم فى المدارس الثانوية ، (أى من كانت إحدى اللغتين هى اللغة الأجنبية الثانية أثناء دراسته) لكن مستواهم فى اللغتين متواضع . وكان التدريس فى هذين الفصلين بالطبع أعلى مستوى بصورة واضحة من الفصلين الأولين . وما قيل عن أسلوب التدريس فى المستوى الأول يصدق أيضا على هذا المستوى الثانى ، لكن أحدا من تلاميذ هذا المستوى لم يتوقف عن تلقى الدروس يأسا من إمكان متابعتها .

ولما لم يكن المسجونون والمعتقلون يملكون كتباً للتدريس ، فقد كان المدرس لهذا المستوى الثانى يختار - عادة - إما قصيدة شعرية بسيطة يحفظها ، أو نصا سهلا من أحد الكتب السياسية أو الأدبية (روايات وقصص قصيرة ومسرحيات) التى كان لدينا منها الشيء الكثير ، لتكون مادة الدرس . ويعتمد

المدرس على معلوماته الخاصة ، وعلى النص الذى يقوم بتدريسه ، لشرح القواعد اللغوية .

أذكر مثلا أن القصيدة التى بدأت بها دروس اللغة الفرنسية فى الفصل الثانى ، كانت قصيدة جميلة للشاعر الفرنسى جاك بريفيير بعنوان " أوراق الخريف " ، وقد غناها فى منتصف الخمسينات كل من إيف مونتان وجوليت جريكو (وهما من الفنانين الفرنسيين الذين كانوا من بين من يحتلون القمة فى الخمسينات والستينات) . وانتشرت هذه الأغنية فى العالم كله انتشار النار فى الهشيم ، وترجمت كلماتها إلى الإنجليزية وغناها أكثر من مطرب أمريكي وعلى رأسهم فرانك سيناترا . وكان يندر أن تجد فى مكان فى العالم ، من شماله إلى جنوبه ، ومن شرقه إلى غربه ، شخصا يجيد الإنجليزية أو الفرنسية ، ولا يحفظ كلمات هذه القصيدة ولحنها . لكن مدرس اللغة الفرنسية فى جامعة الشهيد شعبان حافظ لم يكن يغنيها لتلاميذه بالطبع ..

أما المستوى الثالث " الرفيع " فقد كان تلاميذه ممن يجيدون إحدى اللغتين . لكنهم لم يتعمقوا فى دراسة آدابها ، أي من كانت إحدى اللغتين هى اللغة الأجنبية الأولى أثناء دراستهم

الثانوية ، لكنهم توقفوا عن دراستها في الجامعة . وهؤلاء كانوا يدرسون الجانب المعقد من قواعد اللغة ، وتاريخ الأدب الإنجليزي والفرنسي بشيء من التعمق . كما كان المدرسان اللذان يقومان بتدريسهم يطلبان منهم كتابة أبحاث ، مع توجيههم إلى المراجع التي يمكنهم الاستعانة بها والموجودة في السجن ، ومنها كتب تتناول بشكل مباشر تاريخ آداب اللغة ، أو مقدمات كتب أدبية تتناول حقبة بعينها . وكانت كتابة الأبحاث فرصة هامة لمساعدة تلاميذ هذين الفصلين على التمرس على استخدام اللغتين في التعبير كتابة عن أفكار معقدة ، بأسلوب سلس جميل ، وعلى محاولة التفكير باللغة التي يكتبون بها ، بدلا من التفكير باللغة العربية ثم محاولة ترجمة الأفكار إلى اللغة الأجنبية . فتلك هي أهم خطوة يجب على من يريد إجادة لغة أجنبية ، أن يخطوها لكي يستطيع التعبير عن نفسه تعبيرا سليما بتلك اللغة . أما كتب الأدب الرفيع التي كان المدرس " يقررها " على التلاميذ لقراءتها أو كتابة أبحاث عنها ، فكانت متوفرة ، ولم تكن ثمة مشكلة في هذا الصدد .

وعلى أية حال ، فقد كان المدرسون في كافة المستويات يعطون للتلاميذ واجبات عليهم حلها فيما بين الحصتين ، ويقوم المدرس بتصحيح هذه الواجبات والتعليق عليها في الحصّة التالية .

وكان هناك أيضاً فصل للرياضيات لمن يرغب في تعميق معلوماته في هذا المجال . وكان الجبر له الأولوية حسب رغبة الدارسين ، فكان الطلبة يتعلمون كيف يحلون المعادلات ذات المجهولين أو المجهولات الثلاثة مثلا ، بالإضافة إلى الفروع الأخرى من علم الرياضيات . وكثيرا ما كنت ترى زميلا قد انزوى في ركن ، وهو يسود صفحات وصفحات من الحروف وإشارات الجمع والطرح والضرب والقسمة ، لكي يمزقها بعد مضي ساعات ، ليبدأ من جديد ، وكأنه يستعد لدخول امتحان عسير . لكنه نادرا ما كان يصاب باليأس من التوصل إلى الحل الصحيح . وإذا ما توصل إليه ، كان يصيح فرحا ، وكأنه توصل إلى اكتشاف نظرية النسبية ..

لكن كان هناك أيضا مستوى رفيع للرياضيات . وكان أستاذ هذا الفصل هو الدكتور عبد العظيم أنيس ، أستاذ الرياضة البحتة ، والذي كان - عندما وقع العدوان الثلاثي ضد مصر عام

١٩٥٦ - أستاذ مساعد للرياضيات في جامعة لندن بانجلترا ،
لكنه ترك منصبه هناك احتجاجا على العدوان ، ونظم مظاهرات
في لندن لإدانة العدوان قبل عودته لمصر ، حيث عين أستاذا
للرياضة البحتة بكلية العلوم بجامعة القاهرة .

وكان طلبة هذا المستوى الرفيع جدا ، اثنان لا ثالث لهما ، وهما
الدكتور فائق فريد ، أستاذ مساعد الإلكترونيات بجامعة عين
شمس (عند إلقاء القبض عليه) ، والأستاذ محمد سيد أحمد
(الكاتب السياسى بجريدة الأهرام حاليا) ، وهو خريج كلية
الهندسة .

في الرياضة البحتة من (D . S C) والدكتور عبد العظيم أنيس
حاصل على " دكتوراه العلوم

جامعة لندن . وعندما حصل عليها ، كان هناك - بالإضافة إليه
- أحد عشر شخصا في العالم كله ، استطاعوا الحصول على
هذه الدرجة العلمية الرفيعة في هذا الفرع ، على رأسهم ألبرت
أينشتاين . لذلك فقد تم تعيينه فورا للتدريس بالجامعة
المذكورة . وبعد أن أفرج عنه في عام ١٩٦٤ ، أرسلت له أكثر من

ست جامعات أمريكية عروضاً للعمل بها ، على الرغم من أن دخول أى شخص يشك أن له ميولاً شيوعية ، أو له قريب من الدرجة الثانية له نفس الميول ، إلى الولايات المتحدة في ذلك الوقت كان من رابع المستحيلات .

كذلك كان أحد الزملاء قد تخرج في مدرسة الدومبوسكو الصناعية ، وكان يجيد اللغة الإيطالية . وقد عرض خدماته ، لكن واحداً فقط أبدى رغبته في تعلم تلك اللغة . لذلك كان يعطيه درسا خاصا في الوقت الذى يناسبهما ، غير متقيدين بموعد الدراسة في باقى الفصول .

وربما كان من الملائم الآن أن نحاول أن نرى النتائج العملية لكل هذا النشاط . ولا أستطيع بكل أسف أن أعرف مسار معظم الزملاء بعد الخروج من السجن ، لذلك فإننى سأكتفى ببعض الأمثلة التى أعرفها .

فهناك أولاً زميل كان قد تخرج من معهد صناعى متوسط ، وكان - عند إلقاء القبض عليه - يعمل ميكانيكيا . وكان يعرف شيئا من اللغة الإنجليزية . لكنه أتقنها في السجن ، بل وتعلم

الفرنسية أيضا . وقرأ كمية هائلة من كتب الفلسفة باللغتين ،
وتخصص بالتحديد في الفلسفة الألمانية . واهتم كذلك بكتب
تبسيط العلوم ، حتى أنه صار خبيرا في هذا المجال ، بحيث تم
تعيينه - بعد خروجه من السجن - محررا علميا في إحدى
الصحف الكبرى قبل أن يصير رئيس القسم العلمى في تلك
الجريدة .

وهناك زميل آخر كان يجيد الإنجليزية ، لكن معرفته باللغة
الفرنسية كانت متواضعة . وقد أصبح الآن من رجال الأعمال
المرموقين ، يتفاوض مع بعض من يتعامل معهم من الأجانب
بالفرنسية بسهولة تامة ، حتى أنهم كثيرا ما يثنون على لغته
الفرنسية ، ويسألونه كيف أجادها إلى هذا الحد .

وبصورة عامة ، أتاحت جامعة الشهيد شعبان حافظ الفرصة
لعدد كبير من الزملاء أن يقرأوا بلغات لم يكونوا يعرفونها ،
كثيرا من الأعمال الأدبية والثقافية ، التي لم يكن من الممكن
لهم أن يقرأوها بتلك اللغات لو لم يحضروا دروس جامعة
الشهيد شعبان حافظ ، وذلك سواء في السجن أم بعد
خروجهم لعالم الحرية .

المحاضرات العامة والصراع السياسي

بالإضافة إلى هذه الدراسة المنتظمة ، كانت هناك محاضرات عامة ، وبصفة خاصة في الاقتصاد . وكان يلقي هذه المحاضرات الدكتورة (المرحوم) فؤاد مرسى وإسماعيل صبرى عبد الله وفوزى منصور ، وهم بالطبع ، وكما هو معروف . كانوا أساتذة الاقتصاد السياسى فى الجامعات المصرية . وكان المحاضرون يجيبون على أسئلة المستمعين بعد انتهاء المحاضرات ، وتجرى مناقشات مفيدة ، سواء بين المحاضر والمستمعين ، أو بين المستمعين أنفسهم . وفى الختام ، يعلق المحاضر على هذه المناقشات .

ولعل أهمية محاضرات الاقتصاد لم تكن ترجع فقط إلى مستوى المحاضرين المرتفع وتمكنهم من مادتهم ، وإنما أيضا إلى أن الاقتصاد يشكل أحد الأعمدة الهامة جدا التى تقوم عليها الماركسية ، إلى جانب الفلسفة . وإذا كانت دراسة الفلسفة ، على الرغم من صعوبتها ، يمكن لمن يتمتع بقدر من الثقافة أن يتعمق فيها بمجهوده الفردى بلا مساعدة تقريبا ، فإن دراسة الاقتصاد ، على العكس من ذلك ، دراسة معقدة . فى علم له

قواعد وأسس يجب الإلمام بها وفهمها ، بل وهضمها ، قبل أن يغامر الإنسان في الدخول في تفصيلات الكتابات الاقتصادية المتعمقة . لذلك كانت هذه المحاضرات دائما مكتظة بالمستمعين ، الذين كانوا يتابعونها بانتظام شديد وبتركيز فائق .

كما ألقىت مجموعة من المحاضرات الشيقة في تاريخ الفلسفة ، منذ نشأة الفكر الإنساني ، مروراً بالفلسفة اليونانية ، ثم بالفلسفة العربية في مختلف مراحلها ، ثم فلسفة عصر النهضة الأوروبية إلى الفلاسفة المحدثين . وقد حظيت هذه المحاضرات أيضا بعدد كبير من المستمعين .

وكانت هناك أيضا محاضرات عامة سياسية ، لكنها لم تكن منتظمة ، إذ أن كل تنظيم كان ينظم محاضرات سياسية لأعضائه فقط ، لشرح وجهة نظر قيادة التنظيم ومناقشتها . لكن ، كان يحدث أحيانا أن يرغب أحد الزملاء في عرض وجهة نظره في مسألة سياسية على كافة المسجونين والمعتقلين ، لذلك كان يدعو الكافة إلى محاضرة عامة . ولم يكن ذلك يقتصر على الشيوعيين فقط ، بل إن كثيرا من المستقلين كانوا يلقون محاضرات ليعبروا عن آرائهم السياسية أو للحديث في

موضوع آخر يعينهم . وكانت معظم هذه المحاضرات تحظى باهتمام عدد كبير من الزملاء .

بالإضافة إلى المحاضرات ، كانت هناك ندوات " للصراع السياسى " .

والصراع السياسى هو أسلوب تبادل الآراء وإجراء تصويب أو تعديل الخط السياسى للأحزاب الشيوعية . والمفروض أنه لا يكون " مفتوحا " طول الوقت ، بل إنه يتقرر فتحه قبل مؤتمر الحزب بفترة شهرين أو ثلاثة ، ويشترك فيه جميع من يرغب فى ذلك من الأعضاء . وخلال فترة الصراع السياسى ، يدافع كل عضو عن رأيه الشخصى ، مهما كان اختلافه مع خط الحزب . ففى غير أوقات التحضير لمؤتمر الحزب ، لا يجوز للعضو أن يقول رأيه الخاص إلا داخل اللجنة التى ينتهى إليها . فدوره هو أن يدافع عن خط الحزب السياسى ، سواء مع الأعضاء الذين يكون هو المسئول عنهم أو لمن ليسوا أعضاء فى الحزب ، أيا كان رأيه الشخصى فى هذا الخط ، أى حتى لو كان معارضا له . وتسمى هذه القاعدة فى الأحزاب الشيوعية " المركزية الديمقراطية " . أما أثناء فتح باب الصراع تحضيريا

للمؤتمر ، فإن العضو يعبر في اجتماعات الصراع التي يحضرها عدد كبير من الأعضاء ، عن رأيه الشخصي بحرية تامة . والمفروض - نظريا - أن ينعقد مؤتمر الحزب مرة كل أربع سنوات ، لكن قد تستدعي ظروف استثنائية عقد مؤتمر طارئ . وقد جرت العادة في الأحزاب الشيوعية أن ينتهى المؤتمر بإقرار الخط السياسى للحزب ، سواء باستمرار الخط السياسى القديم أو بتعديله ، وانتخاب أعضاء اللجنة المركزية للفترة التى تفضل بين مؤتمرين .

كل ما سبق هو المفروض نظريا . لكن الواقع فى مصر كان غير ذلك . فقد كانت قيادات التنظيمات الشيوعية تتعلل عادة بأسباب أمنية لعدم عقد المؤتمر العادى ، وتكتفى القيادة بتغيير خط التنظيم كما يحلو لها كلما ارتأت ذلك ، بدون الرجوع إلى الأعضاء ، ويظل أعضاء اللجنة المركزية فى أماكنهم دون تغيير . ولعل ذلك كان أحد الأسباب الهامة التى أدت إلى الانقسامات التى عرفتها الحركة الشيوعية المصرية ، والتى أدت إلى أن يكون فى مصر نحو خمسة عشر تنظيما فى آن واحد ، وذلك فى منتصف الخمسينات .

أما في السجن ، فإن التعلل بأسباب أمنية لعدم عقد مؤتمر التنظيم ، لا يمكن أن يكون أمرا جادا . لذلك فقد تم فتح باب الصراع السياسى للتنظيمين الكبيرين (كل على حدة بالطبع) عام ١٩٦٢ تمهيدا لعقد المؤتمرين .

ومن أجل تنظيم الصراع السياسى ، كانت تعقد ندوات في طريقة العنبر ، نظرا لأن زنزانة واحدة كان من الصعب أن تستوعب عدد من يشاركون في المناقشات . وإن كان من المفروض ألا يحضر ندوات الصراع السياسى غير أعضاء التنظيم ، فإن ظروف السجن كانت تجعل ذلك شبه مستحيل . لذلك كان يمكن لأى معتقل أو مسجون أن يحضر . وكان الزملاء أول الأمر يحترمون بعض القواعد ، فلم يكن يشارك بإبداء الرأى غير أعضاء التنظيم الذى يدور الصراع السياسى حول خطه ، لكن ، نظرا لأن كل شىء كان يحدث علنا وأمام الجميع ، فقد تم تجاوز القواعد ، وشارك أعضاء من تنظيمات غير ذلك الذى ينظم الصراع في المناقشات ، بل وأدى عدد من المستقلين بدلوهم أيضا .

وبهذه المناسبة ، نشير إلى أن الصراع السياسى الذى تم فتح بابه فى سجن الواحات الخارجة ، لم يغير أى شىء ولم ينتهى - كما هو المفروض - بانتخاب أعضاء القيادة ، بل ظلت القيادة فى مكانها كما هى ، ولم يغير أى شخص رأيه .

والمفروض أن الخط السياسى للحزب الشيوعى فى أى بلد كان ، يحدد موقف الحزب من قضايا البلد ، بصرف النظر عن موقف القوى الأخرى الموجودة على الساحة السياسية ، وتتحدد العلاقة بهذه القوى - من تحالف أو عدااء - بناء على خط الحزب ، أما فى مصر ، فإن خط الحزب كان يتحدد دائما بناء على الموقف من الحكومة ، أى هل نعارض الحكومة أم نؤيدها ؟ ! لذلك فشلت التنظيمات الشيوعية فى مصر فى أن يكون لها خط سياسى متميز خاص بها ، يكون نبراسا لعملها السياسى الجماهيرى ، وظلت هامشية فى الحقل السياسى ، وإن كان تأثيرها الثقافى كبيرا جدا ، نظرا لأنها كانت تضم فى صفوفها عددا من ألمع مثقفى مصر .

وكانت المحاضرات العامة تتم عادة في طرقة العنبر ، إذ لم تكن
زنزانة واحدة تكفى لاستيعاب عدد المستمعين ، وبصفة خاصة
في حالة محاضرات اساتذة الاقتصاد .

وقد يتساءل القارىء عن موقف إدارة السجن من كل ذلك
النشاط . والواقع أن إدارة السجن كانت في السنتين الأوليين (١٩٥٩ و ١٩٦٠)
تغلق أبواب الزنازين طول اليوم ، ولا تسمح
بالخروج منها إلا نصف ساعة في الصباح ومثلها بعد الظهر ،
باستثناء الفترة التي قررت فيها - على ما يبدو - المباحث العامة
بالاتفاق مع إدارة مصلحة السجون أن نشترك " في تعمير الوادى
الجديد " .

جرت بداية هذه " العملية " تحت إشراف اللواء إسماعيل همت
، وكيل المصلحة آنذاك ، بإخراج جدير بمريض نفسى . وتم
خلالها ضرب جميع المعتقلين ضربا مبرحا بجريد النخل ، كما
تم جلد عدد منهم عراة تماما من أية ملابس ، بينما إسماعيل
همت وهو يرتدى ملابسه الرسمية ، ويجلس وسط رمال
الصحراء ، أمام مائدة غطيت بمفرش أخضر اللون ،
يحيط به حرس شرف بملابس التشريفية ، وسلاح أعضائه

مشرع وكأنهم يستعدون للقتال . وقد سالت دماء كثيرة في هذا اليوم ، وحدثت كسور في عظام سبعة من الزملاء ، منهم (المرحوم) على الشريف .

بعد هذه المسرحية الهزلية ، كان المعتقلون (وليس المسجونون) يخرجون في الساعة السابعة صباحا في طوابير يحيط بها السجانة ، إلى " موقع العمل " . وعلى الرغم من أن الموقع لم يكن يصلح لأى شيء ، إلا أن المعتقلين كانوا يحفرون الأرض لشق ترع ، تمهيدا ، كما كان الضباط يقولون ، لوصول المياه (التى لم تصل أبدا بالطبع) . وفى الأيام الأولى كانت الظروف قاسية . فالمعتقلون لا يكاد يستر أجسادهم إلا قليل من ملابس السجن الخشنة ، حفاة الأقدام ، تحت درجة حرارة لا تزيد عن ست أو سبع درجات عند بدأ العمل (فقد كان الفصل فصل الشتاء) ، ترتفع إلى ما يقرب من ثلاثين درجة عند الظهر . وكانت العقارب والثعابين السامة (ومنها الدفان والطريشة) ترتفع من حولهم ، لكنها تهرب بالطبع نتيجة لوجود عدد كبير من الناس . وإذا كان واحد فقط من الزملاء قد لدغه عقرب خلال هذه الفترة ، وأنقذه الدكتور حمزة البسيونى من الموت ، وآخر

كاد ثعبان أن يلدغه ، فتلك معجزة غريبة ليس لها تفسير منطقي .

وكانت أوامر إسماعيل همت تقضى بأن يتم العمل تحت وطأة هراوات السجناء . لكن ضباط السجن ، إحقاقا للحق ، رفضوا تطبيق هذا النظام بعد رحيل همت (منذ بعد ظهر اليوم الثاني) . وكانوا يهرون السجناء إذا ضربوا معتقلا .

وكان السجناء يأخذون موضوع العمل مأخذا جديا خلال الشهور الثلاثة الأولى ، فلا يسمحون لأحد من المعتقلين بالراحة . لكن ، بمضى الوقت ، ونظرا لأنهم أدركوا أن هذا العمل ليس مجديا ، بدأ التراخي بالتدرج ، حتى أصبحت ساعات الراحة أكثر من ساعات "العمل" . وكان المعتقلون يتجمعون في حلقات مناقشة فيما بينهم أو مع السجناء ذاتهم . ولم تكن المناقشات الفردية هذه تتعلق في معظم الأحيان بأمر سياسية ، بل كان الزملاء يتبادلون الذكريات الخاصة المتعلقة بحياتهم قبل دخول السجن ، فالسجن بالنسبة للمسجون هو مجرد قوس فتح في سجل حياته ، يريد أن يتجاوزه ، ويتعلق تعلقا شديدا بحياته قبله . لقد توقفت حياته لفترة ، ولا يشغل باله خلالها إلا حياته

السابقة عليها . كذلك كان الزملاء يفتحون قلوبهم لأصدقائهم بما تزخر به من أحاسيس ومن تطلعات إلى المستقبل ، الذى كان يبدو ساعتها بعيدا وغير مؤكد . لكن الإنسان يعيش دائما على الأمل فى تحقيق أحلامه . وليس من الغريب أن بعض ما كان يتطلع إليه عدد من الزملاء من مشروعات خاصة أو عامة ، قد تحقق بعد سنوات ، بل وحقق الكثيرون منهم ما لم يتخيلوا فى ذلك الوقت أن يحققوه .

وهكذا أصبح العمل مجالا للبقاء لأطول مدة ممكنة فى الهواء الطلق بدلا من البقاء داخل أربعة جدران فى الزنازين .

وأحب هنا أن أشير إلى أمر يوضح طبيعة الشعب المصرى الأصيلة . فقد منع إسماعيل همت عن المعتقلين التعامل مع كاتنين السجن . وكان معنى ذلك حرمان المدخنين من السجائر . وكان السجناء كثيرا ما يشترون - من مرتباتهم الضئيلة - علبا من السجائر ، يوزعونها على المعتقلين إشفافا منهم ، على الرغم من أنهم كانوا ساخطين علينا ، ويرددون دائما أن الشيوعيين لا يحمدون الله على ما هم فيه من نعمة (خاصة وأنهم كانوا يدهشون عندما يعرفوا مكانة البعض الاجتماعية) . ويقولون "

ألا يكفيكم ما أنتم فيه ؟ تريدون أن تصبحوا وزراء ؟ !! كانت تضحيتهم إذن كبيرة جدا .

وكان نصيب المدخن في مثل هذه الحالة ، عدة أنفاس فقط من إحدى السجائر مرة كل أسبوع أو أسبوعين ..

وقد أتاح هذا " العمل " (وكانت إدارة السجن تطلق هذه التسمية التي كانت بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، على هذه العملية ، شأنها شأن البيروقراطية المصرية دائما منذ قديم الأزل ، تسجل في دفاترها الأمور كما ينبغي أن تكون من وجهة نظرها ، وليس المهم مطلقا أن يكون ما تسجله قريباً ، ولو من بعيد ، إلى الحقيقة) ، أتاح إذن الخروج إلى مناطق قريبة من واحة صغيرة تسمى " المحاريق " للمعتقلين أن يلتقوا مع سكان هذه الواحة ، وأن يتبادلوا أحاديث سريعة معهم . وقد اتضح من هذه الأحاديث أن أهالي المحاريق يحسدون المعتقلين الذين " ينامون في غرف مبنية من الطوب ، ويتناولون العسل في طعام إفطارهم " كما كانوا يقولون . وكانوا يطلقون على السجن اسم " القصر " ولم يكن من الممكن لهم أن يتصوروا أن سكان

" القصر " يتحرقون شوقا إلى عالم الحرية الذى يعيش فيه سكان الواحة ، بدون أن يدركوا ما يتمتعون به .

لكن أهل الواحة ، على الرغم من الحرية ، كانوا فى حالة يرثى لها . وأذكر أننا رأينا مرة امرأة تبدو عجوزا إلى حد بعيد جدا ، مقوسة الظهر ، وقد غطى الشعر الأبيض رأسها ، وقد جلست فوق ظهر حمار يقوده شاب ويسير بجوارها شيخ متهالك . وأخبرنا الشاب أنه وأبوه يصحبان أمه المريضة إلى طبيب الوحدة الصحية فى الخارجة (عاصمة الواحة) التى تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات . وعندما استفسرنا عما تشكو منه قال إنه السن ، فى تجاوزت الأربعين من عمرها ! .. وردا على اسئلتنا قال إن معظم أهالى الواحة لا يصلون إلى سن الأربعين ..

وقد قال الزملاء الأطباء إن أهالى هذه المناطق ينقصهم اليود بصورة غير طبيعية ، فمعظمهم يعانون من تضخم الغدة الدرقية . وسأل أحد الزملاء مرة فلاحا من الواحة إذا لم يكن هناك أسماك فى المنطقة ، فأجابته الرجل : " إن الإصلاح الزراعي سيحضر لنا تقاوي منها فى القريب العاجل ! " .

وقد أسعدني أن رأيت برنامجا في التلفزيون الفرنسي منذ نحو أربع سنوات استغرق ساعة ونصف الساعة عن " الوادي الجديد " أي الواحات الخارجة ، شاهدت فيه القرى الجديدة ونشاط أهلها ، الذين يزرعون منتجات كثيرة تصدر إلى فرنسا بصفة خاصة . وقد أشاد البرنامج بما تم إنجازه خلال أربعين عاما ، بحيث أصبح الوادي الجديد واحة يعيش أهاليه في العصور الحديثة بعد أن كانوا في معزل تام عن العالم . كما أسعدني أن فتاة من فتيات الواحة قد فازت بجائزة الشعر التي نظمتها مجلة " أخبار الأدب " عام ١٩٩٩ .

واستمر الوضع علي هذا الحال ، حتى أصبح " العمل " هو آخر ما يفكر فيه السجناء والمعتقلون ، إلى أن اقترح بعض الزملاء من المهندسين الزراعيين ، وعلى رأسهم الزميل عبد المنعم شتلة ، على إدارة السجن ، القيام بعمل مفيد بدلا من تضييع الوقت بما لا طائل منه . وكان الاقتراح هو أن ينشأ المعتقلون مزرعة حقيقية في مكان آخر تماما ، بالقرب من المضخة الكبيرة التي تزود السجن ومساكن السجناء والضباط ، بالماء من المياه الجوفية . ووافقت الإدارة على ذلك .

وهكذا تم استصلاح نحو سبعة أفدنة (بالتدرج بالطبع) وسط
رمال الصحراء القاحلة ، زرعت فيها أنواع عديدة من
الخضروات ، مثل القوطة والباذلاء والبامية والخيار والكوسة
والباذنجان وغيرها ، بالإضافة إلى أنواع من الفاكهة ، وبصفة
خاصة البطيخ والشمام . وكان الناتج من هذه الخضروات
والفواكه من أصناف جيدة جدا ، نظرا للعناية الكبيرة التي كان
الزرع يلقاها . وأصبح السجن يكتفي ذاتيا أول الأمر ، ثم
أصبحت تلك المزرعة تورد الخضروات إلى باقي السجون المصرية
، حتى أنها كادت تغطي احتياجات جميع سجون مصر منها . وقد
أرسلت مصلحة السجون خطاب شكر حار للمأمور السجن على
ذلك الإنتاج ، الذي وفر جزءا هاما من ميزانية المصلحة . وكانت
سعادة المأمور بهذا الخطاب كبيرة جدا .

وقد احتاج الاستصلاح أول الأمر جهود معظم المعتقلين . لكنهم
كانوا يعملون بحماسة بالغة في ظروف مختلفة تماما ، إذ أنهم
كانوا أمام تحد هام لكي ينجح المشروع . وأصبح السجناء مجرد
متفرجين ، بينما كان يوجه العمل ويشرف عليه بالفعل الزملاء
المهندسون الزراعيون . لكن ، بعد عملية الاستصلاح الأولى ،

أصبح العمل لا يحتاج سوى لمجهود أقل من عشرين شخصا . وهكذا كان الآخرون يجلسون في ظلال بعض الأشجار ، يقرأون أو يكتبون أو يزاولون ما يحلو لهم من نشاط ، بل إن عملية الري احتاجت لإنشاء حوض كبير تتجمع فيه المياه لتوزيعها على الأرض المستصلحة . وتحول هذا الحوض إلى حمام سباحة ، كان المعتقلون والمسجونون يسبحون فيه . لكن هذا الحوض لم يكن بالطبع مبطنًا بالسيراميك ، فقاعه وجدرانه كانت من الصلصال والطين ، قام المعتقلون والمسجونون بعد ذلك " بتدييش " جوانبه ، أي بتبطينها بالدبش ، لكنه على أية حال كان فرصة لممارسة هواية السباحة .

وإزاء هذا النجاح ورضاء مصلحة السجن ، أصبح باب السجن مفتوحا بصفة دائمة . فكان المعتقلون يخرجون من السجن متجهين نحو المزرعة في أي وقت يشاءون ، من الصباح الباكر وحتى غروب الشمس . وبالطبع ، أصبحت الزنازين لا تغلق أبوابها إلا عن الغروب . وبالتدرج ، أصبحت لا تغلق ليلا أو نهارا ، وإنما تكتفي إدارة السجن بإغلاق باب العنبر فقط عند الغروب .

ولم يكن هذا الوضع يشكل أي خطر بالنسبة لإدارة السجن . فسجن الواحات كان في مكان منعزل تماما ، وأقرب مكان مأهول له هو الواحة الخارجة ، التي كانت تبعد بنحو عشرة كيلو مترات . وسكان الواحة معروفون تماما ، سواء بزيمهم أو بطباعهم ، وكان من الممكن التعرف على أي غريب يسير في شوارع الواحة الخارجة في ثوان معدودات . أما الوادي ، فكان الطريق الوحيد إليه هو طريق صحراوي يصل إلى أسيوط . والمسافة بين الواحة وأسيوط تبلغ نحو ثلاثمائة كيلو متر . كان من يفكر في الهرب إذن ليس أي أمل في الابتعاد عن السجن كثيرا قبل أن يكتشف أمره ، اللهم إلا بمعاونة هائلة من الخارج . وقد تحقق هرب زميلين في أوائل عام ١٩٦٤ ، لكنهما حظيا بمساعدة من الخارج ، متمثلة - كما قيل فيما بعد - في بعثة فرنسية للبحث عن الآثار في المنطقة . ولولا أن باقي المسجونين اضطروا (لأسباب تتعلق بتأمين كتيمهم وأوراقهم الحزبية والترانزستورات التي كانوا يتابعون بها أخبار العالم كما سيأتي) إلى إخفاء نبأ هروبهما عن الإدارة لمدة ثمان وأربعين ساعة ، لكان في الإمكان إلقاء القبض عليهما بسرعة .

وهكذا ، بحلول أواخر عام ١٩٦١ أو أوائل ١٩٦٢ أصبح السجن مجرد منفى مفتوح . ومن هنا أصبح من الممكن تنظيم الحياة داخله بصورة يتحكم فيها المعتقلون والمسجونون تحكما تاما ، تحت نظر الإدارة بالطبع ، التي كانت تتغاضى عن كل ما يحدث ، طالما أن حالة السجن مستقرة وأن الهدوء يسوده .

وإلى جانب هذا النشاط العام لكل المعتقلين والمسجونين ، كان هناك بالطبع النشاط الحزبي . فكل تنظيم كان يعقد - إلى جانب الاجتماعات الحزبية ، التي لم تتوقف تحت ظل اية ظروف ، حتى أقسامها - دورات تثقيفية لأعضائه لشرح خط الحزب السياسي ، وأساليب العمل الجماهيري ، وغير ذلك من عمليات التثقيف . لكن هذا النوع من النشاط كان يقتصر بالطبع على أعضاء التنظيم وحدهم .

وكان هناك أيضا نشاط الترجمة والنسخ . فكان الزملاء المتمكنون من اللغات الأجنبية يقومون بترجمة الكتب السياسية والفلسفية الهامة إلى اللغة العربية ، ويقوم آخرون بنسخ عدد من النسخ بخط جميل غالبا ، ثم يتم جمعها وتجليدها في كتيبات حتى يطلع عليها أكبر عدد من الزملاء . وكانت التنظيمات

المختلفة تقوم بهذا العمل ، لكن هذه الكتيبات كان يتم إعارتها لكل من يطلبها ، بموافقة الزميل المسئول عن المكتبة في التنظيم . وبعض هذه الكتيبات لا يزال موجود حتى الآن .

ومن أبرز من قاموا بترجمة أكبر عدد من هذه الكتب ، الزميل مستجير . ولدي حتى الآن أحد هذه الكتب المخطوطة من ترجمته . وقد عمل محمد مستجير بعد عدة سنوات مترجما بالأمم المتحدة في جنيف حتى بلغ سن المعاش . وعلى الرغم من ذلك ، فالمنظمة الدولية ووكالاتها المتخصصة لا زالت حتى اليوم تستعين بخبرته .

وعندما كانت الظروف لا تسمح بأن يكون هذا العمل شبه علني ، كانت الترجمة والنسخ يتمان بالقلم الكوبيا على ورقة " البفرة " الشديد الرقة ، الذي يتم فيه لف الدخان عادة ، ويتم تدبيسها وعمل غلاف لها ، يزين أحيانا بالرسوم الجميلة الدقيقة ، حتى تصبح كتيبات صغيرة تختفي في الكف . وكانت كتابة هذه الكتيبات تمثل بعض الصعوبة بالطبع ، فالقلم الكوبيا يجب أن يكون سنه رفيعا لأقصى درجة ممكنة ، بحيث يجب إعادة بريه كل بضع صفحات ، كما يجب أن يحرص الناسخ حرصا شديدا حتى لا يتمزق الورق الرقيق جدا عند الكتابة . كذلك كانت قراءته أيضا صعبة ، لأن حروف تدق حتى تصبح مثل المنمنمات . لكن كل شيء يهون في سبيل أن يثقف الإنسان نفسه . وكانت أوراق البفرة تستخدم أيضا لتهديب الرسائل إلى العائلات . صحيح أن المسجونين - وليس المعتقلين - كان لهم الحق في إرسال رسالة إلى ذويهم مرة كل خمسة عشر يوما ، لكن هذه الرسائل كانت تخضع لرقابة إدارة السجن والمباحث العامة ، لذلك فهي كانت رسائل " رسمية " ، ولم يكن المسجون يشعر بالحرية أثناء كتابتها ، فربما كانت

هناك أمور يريد أن يتحدث عنها لا يريد أن يطلع عليها أحد .
كذلك فإن المعتقلين لهم حق إرسال خطابات أو تلقي الزيارات ،
ولم يكن من المعقول أن يظل ذووهم بدون أي أخبار عنهم
طوال سنوات . لذا فقد كان لابد من تهريب الرسائل بسهولة .
وهكذا ، تم تدريب عائلات المسجونين أيضا على قراءة الرسائل
المكتوبة على ورق البفرة ، بل وعلى الكتابة عليه أيضا !

وكان كثيرون من المعتقلين والمسجونين يؤلفون أعمالا في
مختلف المجالات بالطبع . وسيأتي ذكر ذلك فيما بعد ، لكن
يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن أحد التنظيمات قد طلب من
أعضائه الذين لهم خبرات بالعمل الجماهيري بكافة صوره ، أن
يكتبوا هذه الخبرات حتى يستفيد منها باقي زملائهم . وقد كون
هذا التنظيم مكتبة هامة من هذه الأعمال ، كانت تحت طلب
جميع أعضاء التنظيم ، بل وأحيانا كان أعضاء التنظيمات
الأخرى يستعيرون بعضها .

وايس

كانت المباحث العامة - ربنا بأوامر أعلى منها - تمنع عن المسجونين والمعتقلين جميع مصادر الأخبار ، من صحف ومجلات وإذاعات . لذلك ، فقد كانوا لا يعرفون شيئاً مما يحدث خارج السجن ، سواء في مصر أو في العالم . وكانت مصادر الأخبار في عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٠ شحيحة جداً ، تكاد تقتصر على ما يعرفه المسجونون من عائلاتهم أثناء الزيارات الرسمية المسموح لهم بها . أما المعتقلون ، فلم يكن لهم حق الزيارات . وكان بعض الضباط أو السجناء يقول أحياناً خبراً ما . لكن أخبارهم كانت تؤخذ بتحفظ شديد دائماً . نظراً لمستوى السجناء الثقافي من جهة ، ولأن الخبر ربما يكون مدسوساً بهدف ما من جهة أخرى .

وكانت تحدث أحياناً مصادفات سعيدة تنقل خبراً هاماً . أذكر مثلاً أن أحد المعتقلين عثر مرة في فناء السجن على قصاصة من جريدة الأهرام ، استخدمت غالباً في تغليف شيء ما ، تم فكها في الإدارة ، ثم ألقيت القصاصة ، فحملها الهواء وألقى بها إلى

فناء السجن . وقرأ المسجونون والمعتقلون في هذه القصاصة نبأ تأميم عدد من البنوك .

كان الخبر - على الرغم من أنه كان متأخرا لأكثر من أسبوع - هائلا . وبصرف النظر عما أثاره من مناقشات واجتماعات للقيادات السياسية لمحاولة تحليله ، ولنتيجة المناقشات والتحليلات ، فقد لعبت المصادفة دورا كبيرا في وصول خبر كهذا للمسجونين والمعتقلين . اللهم إلا إذا كان إلقاء هذه القصاصة بالذات متعمدا من جانب الإدارة ، لأنه يمكن أن يؤدي إلى إحداث بلبلة في أذهان المسجونين والمعتقلين ، ويؤكد تحليلات البعض ويهدم تحليلات الآخرين من جذورها .

لذلك فقد كان الحصول على الأخبار أحد أهم ما يشغل بال الناس على كل المستويات .

وفي أوائل عام ١٩٦١ ، نجح زميل في تهريب أول جهاز ترانزيستور يدخل السجن . لكن ذلك تم بالطبع في تكتم شديد ، فقد كان للمباحث العامة عيون بيننا . لذلك ظل الأمر سرا ، لا يعرفه غير ساكني الزنزانة التي بها الترانزيستور وقيادة التنظيم الذي يتبعه

الزميل . وكان هذا الجهاز لا يستخدم إلا لسماع نشرات الأخبار فقط ، وفي تكتم شديد . فقد كان يتم تخفيض الصوت حتى لا يكاد يسمع ، وينصت الزميل الذى عليه الاستماع إلى النشرة تحت بطانية يلتحف بها .

لكن قيادة التنظيم كانت تبلغ القيادات الأخرى بالأنباء الهامة جدا ، قائلة لهم إنها حصلت عليها من " مصادرها الخاصة " . لكن باطراد وصول الأخبار ، لم يكن الاستنتاج عسير جدا . وبدأ كل تنظيم يسعى بدوره إلى تهريب جهاز ترانزيستور .

وبعد بضع شهور ، كان بالسجن عدد كبير من الأجهزة ، حتى أن كل زنزانة من الزنازين الأربعين أصبح بها جهاز واحد على الأقل . ولم يكن من الممكن بالطبع إخفاء ذلك ، وأصبح الأمر معروفا للكافة ، حتى لإدارة السجن . لكن لم تكن الإدارة تستطيع شيئا ، فعلى الرغم من التفتيش الدقيق للزنازين ، لم يمكنها العثور على أي اثر لأجهزة الترانزيستور ، التي كان يتم تأمينها في مخابئ لم تكن تخطر على البال طوال فترة فتح أبواب العنابر . وأستميح القارئ عذرا في عدم الاستطراد في الحديث عن المخابئ ، فمن يدري ما تخبؤه الأيام للسياسيين !

وخطرت (للمرحوم) عبد الستار الطويلة فكرة ، ألا وهي تنسيق الاستماع ، بحيث يتم سماع أكبر عدد من نشرات الأخبار من مختلف المحطات ، حتى تتجمع لديه نشرة كاملة للأنباء في الصباح ، فقد كان الاستماع لا يتم إلا بعد إغلاق باب العنبر وإخراج الأجهزة من مخابئها .

واقتنعت القيادات بذلك الحل ، وتم تفويض عبد الستار الطويلة بالقيام بهذا التنسيق وإعداد نشرة يومية تتلى على من يريد سماعها .

وقام الزميل بذلك العمل على خير وجه . فقد حدد لكل زنزانة محطة إذاعية معينة تستمع إلى نشرات أخبارها ، ويقوم زميل سريع الكتابة بتدوين الأخبار أثناء تلاوتها . ويقوم عبد الستار الطويلة بتجميع كل ما تمت كتابته في الصباح الباكر بمجرد فتح أبواب الزنازين (أي بعد الساعة السابعة بقليل) ، وينسقها ، مستبعدا الأخبار المكررة ، ومضيفا إلى بعضها - من نشرات أخرى - ما تكون قد أهملته من تفصيلات . وفي الساعة التاسعة والنصف ، يمر زميلان في العنبرين ، ومنهم أحيانا عبد الستار الطويلة نفسه ، مناديان (مثل المنادي العام في العصور

الوسطي ، قبل انتشار الصحف والراديو) بأن نشرة أخبار " واس " ستذاع بعد نصف ساعة مثلا ، في طريقة العنبر . وأصبح من الأمور الطبيعية والمتوقعة أن نسمع في طريقة العنبر من يقول بصوت مرتفع " واس يا زملا .. واس يا زملا .. " ويتجمع من يريدون سماع النشرة التي يتلوها عليهم عبد الستار الطويلة في الوقت والمكان اللذين يحددهما المنادي .

وقد أطلق بعض الزملاء تندرا على عبد الستار اسم " واس " ، اختصارا ، كما قالوا لـ " وكالة أنباء ستار " ، وفي الوقت ذاته فهذه التسمية تقترب من اسم وكالة الأنباء السوفييتية " تاس " . وقد ظل الزملاء جميعا طوال فترة السجن وما بعدها ينادون عبد الستار الطويلة باسم " واس " ، واشتهر بهذا الاسم حتى بين من لم يدخلوا السجن ، ولم يعيشوا أمجاد وكالة " واس " .

وهكذا ، كانت نشرة أخبار " واس " تضم كل الأخبار التي يذيعها راديو لندن ، وصوت أمريكا ، وإذاعة فرنسا الدولية ، وإذاعة موسكو وإذاعة الشرق الأدنى (البريطانية أيضا) ، بل وحتى إذاعة بيكين ، بالإضافة إلى عدد من الإذاعات العربية بالطبع ، وعلى رأسها إذاعة القاهرة وصوت العرب . وتجدر الإشارة هنا

إلى أن الإذاعة السعودية من الرياض كانت تقدم نشرة جيدة جدا ، باستثناء كل ما يمس المملكة بالطبع . وكانت معظم أخبارها ترد في نشرة " واس " .

وإلى جانب الأخبار ، كان المسجونون والمعتقلون يستمعون كل يوم لافتتاحيات كبريات الصحف من الشرق والغرب التي تذيعها إذاعات الدول ، مثل البرافدا والإزفستيا والواشنطن بوست والتايمز والجارديان والنيويورك تايمز والموند والفيجارو وغيرها . ولذلك فقد أضحوا على علم بأدق مجريات الأمور في العالم .

والحقيقة أن عبد الستار لم يكن يجري أي نوع من الرقابة على الأخبار ، ولم يحدث أن تدخل أي مسئول سياسي في عمله ، حتى لو كانت الأخبار التي يذيعها تدحض بعض آرائهم التي يرددونها . وقد استطاع عبد الستار الطويلة فرض ذلك الشرط (أي شرط عدم فرض رقابة على الأخبار) على القيادات السياسية ، التي لم تكن تستطيع أن تتصدى لتشوق جميع الزملاء إلى سماع الأخبار من أي مكان في العالم .

وكان يحدث أن يعلق الزملاء فيما بينهم على طريقة صياغة خبر ما - وبصفة خاصة أخبار الإذاعة البريطانية - بعد سماع النشرة . فللإذاعة البريطانية بالذات أسلوب في صياغة الخبر ، بحيث توحى بضرورة تصديقه أو على العكس ، بضرورة الشك فيه ، بدون أن تقول ذلك صراحة ، وإنما بأسلوب صياغته . كما أنها تركز بطريقة لبقة على ما تريد ترسيخه في ذاكرة مستمعيها من أنباء مصاغة بأسلوبها ، أو تمرر الكرام على ما ترجو إلا يعلق بذهنهم . وكان الزملاء واعون لذلك تماما .

وبعد بناء المسرح ، كما سيأتي في الفصل الثاني ، أصبح عبد الستار الطويلة يقرأ النشرة صباح كل يوم في ذلك المسرح .

من جهة أخرى ، حرص عبد الستار الطويلة على أن " يعين " مندوبين له ، يتسقطون الأخبار بجميع الوسائل المتاحة ، مثل الدردشة مع السجناء ، بل والضباط ، كما يحددون للزملاء الذين يتلقون الزيارات ، الأسئلة التي يتعين عليهم أن يوجهوها إلى الزائرين لمعرفة آخر الأخبار بأكبر قدر من الدقة . وكان هو نفسه نشيطا جدا في البحث عن الأخبار ، مهما بدت قليلة الشأن .

ونشير هنا إلى أنه بعد أن أصبح وجود أجهزة الترانزيستور علنياً، كانت تستخدم ، إلى جانب سماع نشرات الأخبار وكتابتها ، في سماع الموسيقى . ولن ينسى أحد ممن كانوا في السجن ، كيف كان صوت أم كلثوم يلعلع في جنبات السجن خلال الحفلات الشهرية التي كانت تقدمها في أول يوم خميس من كل شهر . وكانت تلك اللحظات ، التي يكاد المرء يسمع فيها دبة النملة للسكون الذي يخيم على الجميع ، لحظات سعادة صافية يستمتع فيها كل مسجون ومعتقل بكل جوارحه ، بصوت كوكب الشرف المحلق . كما كان هواة الموسيقى الكلاسيكية يستمتعون بسماع بعض منها في البرنامج الثاني المصري . فقد كان سماعها من محطة أخرى يمثل بعض الصعوبة ، لأن معظم الإذاعات الأجنبية في تلك الفترة ، لم يكن من الممكن التقاطها إلا على الموجات القصيرة . ولا يكون الصوت في هذه الظروف نقياً بحيث يمكن للهواة الاستمتاع استمتاعاً كاملاً بالموسيقى . وعلى الرغم من ذلك ، فإن ظروف الاستماع بصفة عامة ممتازة في الواحات ، أو على الأقل أفضل منها في المدن مئات المرات . فموجات الأثير لا تصطدم بأية عوائق مادية أو كهرو - مغناطيسية تذكر أثناء تجوئها في الصحراء . ومع ذلك ، فالموسيقى تحتاج إلى صفاء شبه تام كان من الصعب أن يتحقق .

المسرح

الحديث عن المسرح في السجن حديثا مستقلا عن أوجه النشاط الأخرى سببه أن المسرح لعب دورا هاما جدا في النشاط الثقافي للمسجونين والمعتقلين ، بل ربما كان من أهم أوجه النشاط الجماعي لهم .

وسينقسم حديثنا عن المسرح إلى قسمين ، أولهما المسرح كبناء ، وثانيهما العروض المسرحية .

أولا : البناء

بدأ النشاط المسرحي بتقديم مسرحيات مصرية وعالمية في طريقة العنبر . وكانت الفرقة التي تقدم العرض تقوم به في أحد العنبرين في إحدى الأمسيات ، وفي العنبر الثاني في الأمسية التي تليها .

وعندما تغيرت الظروف بعد البدء في استصلاح أرض المزرعة ، أصبح من الممكن التفكير في بناء مسرح في حوش السجن ، الذي كان كبيرا جدا .

وقام المهندس فوزي حبشي ، بمساعدة محمد حمام (الذي كان وقتها طالبا بكلية الفنون الجميلة ، التي تخرج من قسم العمارة فيها بعد إطلاق سراحه ، وأصبح مهندسا معماريا) ، وبعد الاتفاق مع إدارة السجن بالطبع ، بإعداد الرسوم اللازمة لهذا المسرح . وكانت الرسوم معدة بعد فترة قصيرة من الزمن ، طرحت بعدها للمناقشة العامة . وقد أعرب كل الزملاء المسجونين والمعتقلين تقريبا عن إعجابهم بهذه الرسوم .

كانت الفكرة الأساسية هي عمل مدرجات للمشاهدين في شكل نصف دائري ، تحيط بـ " خشبة المسرح " التي كانت على هيئة قوس يكمل الدائرة تقريبا ، وعلى طرفيها حجرات الممثلين وتبديل الملابس ، التي تتصل فيما بينها بطريقة خشبة المسرح .

وكانت المشكلة الأولى هي كيف يجد المنفذون المواد التي سيبنون بها المسرح كله ، بما فيه من مدرجات وحوائط . وكان الحل الوحيد هو " ضرب " الطول اللازم للبناء من الصلصال الذي تتكون منه الأرض في تلك المنطقة ، تحت طبقة غير سميكة من الرمال ، ثم تجفيفه على مسطح من الأرض يسميه المعمارون " مفرش " ، تحت حرارة الشمس بعد خلطه في " معجنة " ببعض

الرمال والتبن المتبقي من الدقيق الذي كان يستخدم لصناعة خبز السجن ، ثم بحساب كمية الطوب اللازمة . وكانت هذه الكمية كبيرة جدا ، إذ تجاوز عددها المليون طوبة حسب ما قدره المهندس فوزي حبشي .

وقام جميع المسجونين والمعتقلين بالتطوع لضرب الطوب اللازم ، وأنشأوا منطقة في الحوش لهذا العمل ، ومنطقة أخرى لتنشر الطوب النيئ ليجف تحت حرارة الشمس ، يسميها المعماريون " مفرش الطوب " . كما حدد المهندس فوزي حبشي المكان الذي ستنشأ فيه المدرجات حتى يتم حفره .

وقد اشترك بالفعل معظم من كانوا في السجن في هذه الأعمال . ومما يذكر في هذا الصدد أن الزميل فؤاد بليغ انفرد طوال فترة ضرب الطوب ، بالعمل في " المعجنة " فكان يبدل قدميه المغروستين في الطمي لعدة ساعات كل يوم ، حتى يقوم بعجن الصلصال بأفضل صورة ممكنة .

وطرأت فكرة جميلة (للمرحوم) الفنان حسن فؤاد . فأصدر " مجلة حائط " متوسطة الحجم أسماها " مجلة المسرح " ، كانت

تقدم تقريرا يوميا عن كمية الطوب التي ضربت ، والكمية الباقية لإتمام العمل . كما كانت تحكى عن الطرائف التي كانت تحدث في مواقع العمل ، وتكتب رقم الزنزانة التي ينتج سكانها أكبر عدد من الطوب ، بالإضافة إلى مقالات صغيرة عن المسرح في مصر وفي العالم . وقد نجحت هذه المجلة في تأجيج التنافس بين الزملاء لضرب أكبر كمية من الطوب يوميا . وكان هذا التنافس تنافسا صحيا ، لا أثر فيه للعصبية ، بل كان تنافسا يتم في جو من المرح والزمالة ، والرغبة المشتركة في إتمام عمل هام ، ستكون له آثار ثقافية عظيمة على جميع الناس ، وبصفة خاصة الزملاء العمال والفلاحين ، الذين لم تتح لمعظمهم فرص كثيرة لأن يشاهدوا أعمالا مسرحية على مستوى عال ، سواء أكانت من المسرح العالمي أو من المسرح المصرى .

وفي الوقت ذاته ، أخذ عدد من الزملاء تحت إشراف المهندس فوزى حبشى ومساعدته محمد حمام ، في استخدام الطوب الذى جف ، للبدء فى البناء . وأخذت المدرجات تكتمل ، وبناء الحوائط يعلو ، بينما ضرب الطوب يتواصل .

وقد حدثت واقعة طريفة تجدر الإشارة إليها هنا . فقد استيقظ المسجونون والمعتقلون ذات صباح ، فوجدوا " مفرش الطوب " خاليا تماما من أية طوية ، في حين أنه كان يضم آلاف الطوب في مساء اليوم السابق قبل إغلاق باب العنبر عليهم . وأصاب الإحباط الجميع ، فقد كان ما تركوه بالأمس نتاج عدة أيام من العمل الشاق . وعندما حاولوا معرفة ما حدث ، أخبرهم السجناء أن المأمور قد " استعار " هذا الطوب لبناء سور حول منزله . وقرر الزملاء الإضراب عن العمل . وسأل المأمور (الذى كان ينوي فيما يبدو إكمال سور فيلته من ذلك الطوب) عن سبب توقف العمل ، فذهب إليه مندوبو الإدارة وأبلغوه أن ذلك تم احتجاجا على ما فعله . ولم يتم استئناف العمل في ضرب الطوب إلا بعد أن أعرب المأمور عن اعتذاره ، مع وعد من الزملاء أن يضربوا له باقي ما يحتاجه للسور بعد تمام بناء المسرح . وقد أوفى الزملاء بوعدهم هذا .

وقد استغرق هذا العمل ، بما في ذلك ضرب الطوب وبناء المدرجات والمسرح ، نحو أربعة شهور ، وأصبح مبنى المسرح شامخا في الطرف الشمالي الشرقي من حوش السجن . وقام

عدد من الزملاء بعد ذلك بطلائه بالجير . وكان يحد جانب المنصة (أى خشبة المسرح) من جهة الغرب حائط كبير ، يبلغ ارتفاعه حوالى عشرة أمتار ، وعرضه نحو عشرين مترا .

وعلى هذا الحائط ، قام الفنان صبحى الشاروني بتثبيت نحت بارز يمثل حمامة سلام ضخمة ، يراها كل من يدخل من باب السجن . وهكذا اكتمل البناء ، وأصبح المسرح جاهزا للاستخدام .

وقبل أن نختم هذا الوصف لبناء المسرح ، نشير إلى أن هذا الصرح الجميل لم يكن يستخدم للعروض المسرحية فقط ، فقد كان يستخدم أيضا لتلاوة نشرة أخبار " واس " الصباحية ، كما كان كثيرا ما يستخدم فى إلقاء المحاضرات العامة . أما فى ليالى شهر رمضان ، فكانت تقام فيه سهرات كل ليلة كما سيأتى فيما بعد . ولعل واحدة من أهم المحاضرات التى ألقىت فى المسرح ، محاضرة قيمة قدمها الدكتور فائق فريد عن أحد العلوم الحديثة التى أحدثت ثورة فى التكنولوجيا الحديثة ، ألا وهو علم " السيبرناطيقا " ، الذى تأسست عليه تطبيقات هامة ، أبسطها منظم درجات الحرارة المعروف باسم " الترموستات " ،

وأعقدها علوم الحاسب الإلكتروني (الكمبيوتر) . وكانت المحاضرة مبسطة إلى حد أن أى شخص كان يستطيع أن يتتبعها ، على الرغم من صعوبة الموضوع البالغة .

ثانياً : العروض .

بدأت العروض المسرحية كما أسلفنا ، قبل بناء المسرح . وكانت تقدم في طرقتي كل من العنبرين .

وكانت هناك عروض من المسرح المصرى وأخرى من المسرح العالمى فقد قدمت من روائع المسرح العالمى مسرحيات مثل " ماكبث " لويليم شيكسبير ، و " تيكراسوف " لجان بول سارتر ، وغيرها .

وكان معنا فى السجن أيضا الكاتب المسرحى الكبير ألفريد فرج ، الذى كتب أثناء فترة اعتقاله مسرحية " حلاق بغداد " ، المستوحاة من إحدى قصص ألف ليلة وليلة . وقد مثلها الزملاء لأول مرة قبل أن تقدم على المسرح القومى بالقاهرة بنحو عامين .

وبعد تمام بناء المسرح ، أصبحت العروض تقدم فيه بالطبع . وقبل موعد العرض بأسبوعين أو ثلاثة ، كان يتم إبلاغ إدارة السجن بموعد العرض . ودعوة المأمور والضباط والسجانة لحضوره . فالعرض كان يتم مساء ، لذا كان لابد من موافقة الإدارة على عدم إغلاق العنابر عند الغروب كما جرت العادة . ولم يحدث أن اعترضت الإدارة ، بل وكانت تدعو طبيب مستشفى الواحة ، ووكيل النيابة ، وغيرهما من كبار موظفي الخارجة لحضور العروض . ولم يتخلف مأمور السجن أو أحد الضباط عن حضور أى عرض مسرحي قدمه الزملاء طوال الفترة التي امتدت أكثر من عامين ، أي إلى أن تم إغلاق السجن في إبريل عام ١٩٦٤ ، بل وكان أولاد المأمور يحضرون العروض المسرحية عندما يكونون في الواحات .

وتجدر الإشارة هنا إلى واقعة طريفة . فقد حدث أثناء العرض الأول الذي أقيم في هذا المسرح أن جاء السجان المكلف بالتليفون بمبنى الإدارة ، وقال لوكيل النيابة إن كاتب النيابة في الواحة اتصل تليفونيا ، وأنه يبلغه بضرورة توجهه إلى مكتبه فورا لأمر هام . وابتسم وكيل النيابة ، وصرفه ، لكنه لم يتحرك

من مكانه واستمر في مشاهدة العرض حتى النهاية . وكان العرض - إذا لم تخنى الذاكرة - هو مسرحية " عيلة الدوغرى " لنعمان عاشور .

وبعد انتهاء العرض ، حرص وكيل النيابة على تهنئة المأمور والمخرج والممثلين . وسأله أحدهم كيف لم يتوجه إلى مكتبه عندما تلقى المكالمة التليفونية ، فقد تكون جريمة خطيرة قد وقعت ، أو أن مسئولا كبيرا كان يريد الاتصال به . وضحك وكيل النيابة قائلا إنه كان قد اتفق مع كاتبه أن يتصل به ليطلب منع سرعة الحضور ، لأنه كان يتوقع أنه سي شاهد عرضا ساذجا لفرقة من الهواة ، حتى يستطيع أن يتخلص من الملل الذى كان واثقا أنه سيشعر به . لكنه ، أمام روعة العرض ، استمر في مشاهدته حتى نهايته ، بل وقال إنه سبق وشاهد عرض نفس المسرحية لإحدى الفرق الكبرى فى القاهرة ، لكنه يرى أن عرض الواحات كان أفضل .

ووجه وكيل النيابة سؤالا للمخرج ، معربا عن دهشته لدخول أنسات وسيدات للسجن لتقمن بالأدوار النسائية . ورد المخرج بسرعة قائلا إن السيد المأمور يسمح بدخولهن حتى يمكن إقامة

العروض . وهنا انفجر المأمور ضاحكا ، ونزع الزملاء الذين قاموا بالأدوار النسائية الشعر المستعار ، ومسحوا الأصباغ ، وظهر أنهم ذكور . وأعرب وكيل النيابة عن دهشته الشديدة وأعتاد تهنئتهم .

وكان الزملاء الذين يقومون بالأدوار النسائية يقومون بعمل كل ما من شأنه إقناع المشاهدين - الذين كانوا يعرفونهم جيدا بالطبع - بأدوارهم ، حتى أنهم كانوا يزيلون الشعر من سيقانهم وأذرعهم حت يبدوون فعلا أقرب إلى الإناث .

كذلك فقد كان الشعر المستعار الذى يضعونه على رؤوسهم ، يصنعه بعض الزملاء بإمكانيات متواضعة جدا ، منها مثلا صوف فراء الخراف التى تذيب لإطعام السجانة والمسجونين ، بحيث يبدو وكأنه بالفعل شعر طبيعى .

وقد تألق فى هذا العرض الأول على المسرح بعد بنائه عدد من الزملاء - وجميعهم لم يسبق لهم التمثيل من قبل - وعلى رأسهم على الشريف ، الذى كان مدرسا للغة العربية قبل دخوله السجن . وقد قام على الشريف بدور كبرى بنات " عيلة الدوغرى " ، على الرغم من أنه لا يتمتع شكلا بأية أنوثة ، لكنه

نجح في إقناع المشاهدين بدوره الذي أداه ببراعة منقطعة النظر. وبالطبع ، فإن أداءه كان مثيرا لعواصف من الضحك ، لكن المسرحية في الأساس - وعلى الرغم من جدية ما تناقشه من قضايا - كوميدية ، واحترف علي الشريف التمثيل بعد خروجه ، ولمع في عدة أدوار هامة في السينما والتلفزيون ، ومنها مثلا أدواره في أفلام " الأرض " و " العصفور " وغيرها قبل أن يتوفى وهو في قمة مجده . كما أبدع أيضا الزميل لطفي فطيم في دور لاعب القدم المحترف .

وبهذه المناسبة ، تجدر الإشارة أيضا إلى أن عددا من الزملاء الوقورين جدا ، قد تألقوا في أدوار عديدة في المسرحيات التي قدمت قبل بناء المسرح ، ومنهم - على سبيل المثال فقط - الأستاذ نبيل الهلالي المحامي المعروف ، في دور اللص الذي تقمص مرغما شخصية الوزير السوفييتي نيكرا سوف في مسرحية جان بول ساترر ، والزميل فخرى مكارى - وكان مدرسا للغة الإنجليزية في إحدى المدارس الثانوية - في دور الحلاق ، و (المرحوم) الزميل صلاح حافظ رئيس تحرير روزاليوسف الأسبق ، في دور الأمير في مسرحية ألفريد فرج " حلاق بغداد " ولأننى

أكتب من الذاكرة ، فإنني لست أذكر الآن أسماء بعض الزملاء
الأخرين الذين أبدعوا في " ماكبث " لويليم شكسبير ، وفي "
الناس اللي تحت " وفي " عيلة الدوغري " لنعمان عاشور ،
وغيرها .

ولا يفوتني هنا أيضا أن أشير إلى الجهود الرائعة التي كان الزملاء
المخرجون ومديرو الإضاءة ومهندسو الديكور ، يقومون بها لكي
تخرج العروض في أفضل صورة وأجملها وأقربها إلى روح النص .
وبهذا الصدد ، لا أعتقد أن أحدا ممن حضورا عرض " ماكبث "
" يمكنه أن ينسى الأرواح الثلاثة التي كانت تظهر لليدي ماكبث
وتحرضها على دفع زوجها لاغتيال الملك والاستئثار بالعرش . كان
ديكور هذا المشهد جديرا بأي مسرح في العالم ، على الرغم من
أن المسرحية قد قدمت في طرقة العنبر ، وبإمكانيات متواضعة
جدا .

ثالثاً : الإعداد للعروض

ولكي تكون العروض المسرحية على هذا المستوى الرفيع ، كان لابد من الإعداد لها إعدادا جادا متقنا .

كان اختيار النص المسرحي يتم بمبادرة فردية بالطبع ، ربما باستثناء مسرحية ألفريد فرج " حلاق بغداد " التي كتبها في السجن ، والتي كان الجميع يريدون مشاهدتها علي خشبة المسرح .

كان المخرج ، أو أي زميل يريد تمثيل أحد النصوص أو أحد الزملاء النقاد المسرحيين ، يختار النص الذي يراه ملائما ، وبمبادرة منه ، يتم جمع الفريق . وكانت الكلمة النهائية بالضرورة ، للمخرج . فهو الذي يوزع الأدوار ويراقب العمل من ألفه إلي يائه .

وقبل أن تبدأ بروفات المسرحية ، كان المخرج يتفق مع أحد النقاد ، لكي يقوم بدراسة كاملة مدققة للنص ، ولدور كل شخصية فيه . وعندما تنتهي هذه الدراسة المكتوبة ، ويناقشها المخرج مع الناقد ويتفقان علي صيغتها النهائية . يجتمع فريق

العمل بأكمله ، بما في ذلك المسئولون عن الإضاءة وعن الديكور وعن المكياج ، ويتلو عليها ملحوظاتهم . ثم ينتقل الناقد بعد ذلك إلى تحليل كل شخصية على حدة . وتجري المناقشات بعد كل شخصية . وكان جميع المشاركين في العمل ، يساهمون بالفعل في المناقشات بصورة جدية . بعد ذلك ، وليس قبله . تبدأ البروفات ، التي كانت تستغرق الوقت اللازم لكي يحفظ كل ممثل دوره وحركته التي حددها له المخرج على المسرح (خاصة وأن المخرجين كانوا جميعا يرفضون وجود ملقن ، مما كان يجعل الممثلين يضطرون لحفظ أدوارهم حفظا تاما) ، ولكي يجيد أداء دوره أفضل إجابة ممكنة ، مهما استغرق ذلك من زقت . وعادة لم يكن الناقد يحضر جميع البروفات ، إلا إذا رغب في ذلك . ثم يجري المخرج البروفة العامة بحضور عدد من النقاد ، ليبدوا ملحوظاتهم ، إذا عنت لهم بعض الملحوظات . وهكذا يصبح العرض جاهزا لتقديمه لجمهور المشاهدين ، الذين لم يكونوا في الواقع يمثلون جمهورا عاديا ، بل كانوا جمهورا متميزا يحسب له العاملون في المسرحية ألف حساب .

وتجدر الإشارة هنا أن مجلة المسرح ، التي كانت مجلة حائط كما أسلفنا ، والتي بدأت مع بداية بناء المسرح نفسه لتشجيع الزملاء على الاشتراك في ضرب الطوب وبناء المسرح ، لم تتوقف عن الصدور بعد استكمال البناء ، وإنما أصبحت أسبوعية بعد أن كانت يومية ، وكبر حجمها ، وأصبحت مزينة برسوم وزخارف جميلة ، بحيث بات إخراجها رائعا . وكانت هذه المجلة تكتب نقدا عن كل مسرحية تقدم في السجن ، كما تتابع أخبار المسرح في العالم ، وتحصل على أخبارها من الإذاعات العالمية أو من المجلات المصرية والعالمية التي كانت تصل السجن . وكان يكتفي فيها متخصصون في النقد المسرحي ، أذكر منهم الدكتور صبري حافظ ، أستاذ الأدب المقارن بجامعة لندن البريطانية حاليا ، والدكتور سامي خشبة ، رئيس هيئة المسرح السابق ، والدكتور فتحي عبد الفتاح المسئول عن الثقافة والفنون بدار الجمهورية ، والمرحومان الدكتور لويس بقطر وعبد السلام زكي مبارك ، وغيرهم .

وقبل الانتهاء من الحديث عن المسرح ، هناك واقعة تستدعي التأمل والتفكير سأرويها هنا.

كان سجن الواحات يتكون من ثلاثة عنابر ، أولها يحتله المعتقلون الشيوعيون . والثاني المسجونون الشيوعيون . أما العنبر الثالث ، فكان يحتل نصفه الإخوان المسلمون الذين صارت ضدهم أحكام في قضية التنظيم السري المسلح عام ١٩٥٦ . وكان من بينهم الشيخ عمر التلمساني ، أحد الإخوان القلائل جدا الذين كانوا يتبادلون الحديث مع الشيوعيين . أما نصف العنبر الثاني ، فكان يحتله مسجونون في جرائم غير سياسية ، ومعظمهم في جرائم سرقة . وكان هؤلاء يتبدلون كل ستة شهور . وكان الغرض من وجودهم في الواحات - إلى جانب أنه تأديب للمسجونين المشاغبيين - هو القيام بأعمال النظافة في السجن بصفة عامة وفي العنابر ، بالإضافة إلى العمل في المطبخ والمطبخ . لكن الشيوعيين كانوا يرفضون أن يقوم أحد بتنظيف عنابهم أو زنازينهم ، فهم لم يكونوا يأنفون العمل اليدوي من جهة ، ومن جهة أخرى كانوا يعدون ذلك نوعا من العبودية يرفضونه .

لذلك كان هؤلاء المسجونون ينظرون للشيوخيين نظرة تقدير واحترام ، على الرغم من كل الأكاذيب والافتراءات التي كان وعاظ السجون يقولونها لهم عن الشيوخيين قبل إرسالهم إلى الواحات . فقد دأبت المصلحة على عقد اجتماعات لهم مع الوعاظ قبل إرسالهم إلى الواحات ، حتى يحذروهم من تأثير الشيوخيين ، ويشحنونهم ضدهم بأكاذيب فاضحة ، اعتمادا على أن مستواهم الذهني يمكنهم أن يحشونه بأية ترهات لا يتصورها عاقل . وقد دفع المصلحة إلى ذلك أنه في عام ١٩٥٣ ، استطاع الزملاء الذين كانوا في ليما ن طرة (لأن الحكومة كانت تعدهم مجرمين عاديين وليسوا سياسيين) ، وعلى رأسهم الزميلان (المرحوم) مصطفى طيبة ومجدي فهيم ، تنظيم إضراب لجميع المسجونين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، هز وزارة الداخلية وفرض عليها حالة طوارئ . ولم ينتهى الإضراب إلا بالاستجابة لمطالب المسجونين ، وعلى رأسها عدم تقييد أرجلهم بصفة دائمة بجنازير من الحديد .. ومنذ ذلك التاريخ ، تم الاعتراف بأن المسجونين الشيوخيين مسجونين سياسيين ، وأفردت لهم إما سجون خاصة ، أو أماكن مستقلة في السجون

العامة ، مثل سجن القناطر الخيرة وسجن مصر والسجون الأخرى ، لعزلهم بقدر الإمكان عن المسجونين العاديين .

وعندما بدأ تقديم الأعمال المسرحية على المسرح الذي تم بناءه في الحوش ، كان الشيوعيون يوجهون الدعوة لحضور العروض إلى الإخوان المسلمين وإلى المساجين غير السياسيين . لكن الإخوان المسلمين كانوا يشكروهم ويعتذرون عن الحضور ، بينما كان الآخرون يرحبون بها بالطبع ، خاصة وأن الأغلبية الساحقة منهم - إن لم يكن كلهم - لم تكن قد شاهدت عرضا مسرحيا في حياتها .

وكان هذا هو حال عبده أمين .

وعبده أمين كان محكوما عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بتهمة العود في جريمة سرقة (أي أنه قد سبق الحكم عليه في جريمة سرقة من قبل ، وعاد لارتكاب جريمة مماثلة قبل مضي ثلاث سنوات ، لذلك يعد " عائدا " ويكون الحكم الثاني مشددا) . لكنه - في عرف المسجونين في السجون المصرية - في أسفل السلم الإجتماعي الخاص بهم . فهو ممن يطلقون عليهم اسم "

حرامي غسيل " ، أي أنه يسرق الغسيل من فوق أسطح المنازل ، وهي أدنى منزلة في المحكوم عليهم في جرائم السرقة . واللصوص بصفة عامة في مرتبة دنيا في السجون المصرية ، التي تتكون " أرستقراطيتها " من المحكوم عليهم في قضايا الثأر وتجار المخدرات ، يليهم المحكوم عليهم في جرائم القتل ، وهكذا يتدرج السلم بعد ذلك نزولا إلى لصوص الغسيل . والغريب أن الضباط يختلف مستوياتهم والسجانة ، يجب أن يراعوا هذا التسلسل الطبقي في معاملتهم مع المسجونين حتى يستطيعوا السيطرة على السجن .

وعبده أمين كان من أصل صعيدي ، لكنه ولد في الإسكندرية وعاش عمره كله فيها ، بل ولم يرى الصعيد في حياته . وكان يجيد القراءة والكتابة .

وعندما شاهد عبده أمين مسرحية " عيلة الدوغري " في مسرح السجن ، كان مشدوها . كان يعيش تجربة فريدة أخذته بكل كيانه . كان يعرف أن هناك مسارح ، بل ويعرف أسماء المسرحيات التي تقدم وأسماء الممثلين ، وكان يتردد على السينما

كثيرا ، لكن لم يتح له قط أن يشاهد عملا مسرحيا . ولم يغمض له جفن ليلتها ، كما حكى هو نفسه في اليوم التالي . وأصبح عبده أمين ملازما للزملاء الذين اشتركوا في تقديم العرض ، لا يريد أن يفارقهم ، ولا يريد أن يكف عن الحديث عن المسرحية .

وفاجأ عبده أمين الزملاء يوما بقوله :

أريد أن أكتب مسرحية . -

وضحك الزملاء ، لكنهم أعطوه كراسة وقلم .

وانكب عبده أمين على تأليف مسرحيته . كنا نشاهده يجلس الساعات الطوال إلى جانب سور السجن ليكتب ، ولا يكاد يكلم أحدا . وبعد بضعة أيام ، ذهب وقد تهلل وجهه إلى أحد الزملاء قائلاً :

- لقد كتبت المسرحية . والآن ، أريد أن أمثلها .

وطلب منه الزميل أن يعطيه إياها لكي يقرأها ، لكن عبده أمين رفض رفضا قاطعا وهو يقول :

ستشاهدها على المسرح . -

وقال له الزميل إنه على أى حال سيحتاج لمخرج ، وأنه مستعد لإخراجها ، لكن عبده أمين لم يتزحج عن موقفه ، وأكد للزميل أنه هو الذى سيخرجها ويمثل الدور الرئيسى فيها بنفسه . لكنه طلب منه أن يساعده فى العثور على أربعة زملاء " يجيدون التمثيل "

(على حد تعبيره) .

وبعد نحو ثلاثة أسابيع ، نادى المنادون بأن عبده أمين سيقدم مسرحيته بعد ساعة . وكان العرض بعد الظهر وليس فى المساء كما جرت العادة ، فقد كان من المستحيل أن تقبل إدارة السجن أن تقبل عدم إغلاق العنابر من أجل مسرحية كتبها ويخرجها "لص غسيل " .

وتوافد عدد لا بأس به من الزملاء لمشاهدة مسرحية عبده أمين . لم تكن مسرحية بمعنى الكلمة . كانت أقرب إلى اسكتش " عرض رجل واحد " ، فأدوار الزملاء الأربعة كانت صغيرة ، هى أقرب إلى أدوار الكومبارس . واضطلع عبده أمين بالبطولة

المطلقة . لكن أغرب ما في الأمر أن هذا الاسكيتش ، الذى كان كوميديا وطريفا ، كان يتضمن عقدة تتطور حتى تصل إلى الذروة ، ثم يأتي الحل . كذلك كان يحترم قواعد المسرح ، أي وحدة الزمان ووحدة المكان ووحدة الحدث ، تلك القواعد التى كان يسير عليها المسرح منذ عصر الإغريق حتى العصور الحديثة ، والتي استخلصها أرسطو . ومع ذلك ، فإن أحدا لم يعلم عبده أمين تلك القواعد ، وهو بالطبع لم يسمع بأرسطو أصلا . لقد أدرك كل هذه القواعد بفطرته وحدها ، بعد مشاهدة مسرحية واحدة .

لقد آمنت بعد مشاهدة هذا العرض ، أن الحضارة ليست فقط كتبها وعلوما وسلوكا ، بل إنها شيء عميق يترسب في الوجدان الجماعى للشعب ، ويظهر في معظم تصرفاته . وقد تأكد لي ذلك بعد أن عشت خارج مصر لفترة طويلة جدا ، جبت فيها كثيرا من الدول الأوروبية المتقدمة ، والآسيوية ، وتعاملت مع رجل الشارع في جميع هذه الدول . فالمصري العادي يمتاز عن أي رجل في الدول الأخرى بذكاء فطرى حاد ، وبتصرفات حضارية واضحة وبحكمة عميقة . لكنه ، بكل أسف ، كثيرا جدا ما

يستخدم هذا الذكاء وهذه الفطنة ، في خداع الآخرين بما يعرف " بالفهلوة " ، وكأنه يتلذذ بتجربة ذكائه وفطنته في هذا المجال . ولم يكرر عبده أمين التجربة ، لأنه لم يبق في الواحات بعدها أكثر من شهر واحد ، فقد انقضت المدة التي كانت مقررة في هذا السجن للمجموعة التي جاء معها . ولا أدري شيئاً عن مصير عبده أمين يعد ذلك . هل استمر يسرق ويدخل السجن ، أم هل وجد عملاً آخر ؟ وهل قابله الزملاء الذين يعيشون في الإسكندرية بعد خروجهم من السجن أم لا ؟ وهل حاول أن يكتب بعد ذلك أم لا ؟

الثقافة الجديدة

كان المسجونون والمعتقلون في سجن الواحات يصدرون مجلة شهرية بإسم " الثقافة الجديدة " وكانت على مستوى ثقافي عال جدا .

وكان حجمها كبيرا ، فقد كانت تقع في مائة وعشرين صفحة . تكتب في كشكول بخط جميل ، وعناوين مقالاتها كانت بخط رقعة وبالألوان . وكانت كثير من صفحاتها مزينة بالرسوم الملائمة ، وبصفة خاصة في الهوامش . أما غلافها الخارجي ، الأمامي والخلفي ، فكانا لوحيتين فنييتين رائعتين . كان إخراجها ، باختصار ، عملا جماليا متكاملا ، بحيث يجعل قراءتها متعة للعقل والعين معا .

ولما كان بالسجن عدة تنظيمات سياسية ، فقد كان يرأس تحرير المجلة خمسة من الزملاء ينتمون لمختلف التيارات ، بالإضافة إلى المستقلين ، لكن روعي في اختيارهم مستواهم الثقافي العالمي بالطبع . وقد تم الاتفاق منذ البداية على أن تكون المجلة ثقافية فقط ، لا تطرح فيها مسائل سياسية

خلافية . ولكن ، لأنه لا يمكن فصل الثقافة عن السياسة ، فإن الجانب السياسي في هذا المجال كان عاما جدا ، بحيث لا يختلف عليه اثنان .

وكان عدد من أعلام الثقافة يكتب في هذه المجلة ، منهم على سبيل المثال لا الحصر ، محمود أمين العالم ، والدكاترة إسماعيل صبرى عبد الله و (المرحوم) فؤاد مرسى وعبد العظيم أنيس وأبو سيف يوسف وأديب ديمترى وفيليب جلاب وألفريد فرج وصبرى حافظ وسامى خشبة و (المرحوم) عبد السلام مبارك وأمير اسكندر و (المرحوم) لويس بقطر و (المرحوم) إسماعيل المهداوى وإبراهيم فتحى ونبيل زكى ومجدي فهيم و (المرحوم) زكى مراد ، وغيرهم كثيرون .

وكانت المقالات تتناول مختلف جوانب الأدب بصفة خاصة ، والثقافة بصفة عامة ، سواء في ذلك الأدب العربى المعاصر أو القديم ، وكذلك الأدب العالمى ، حديثه وقديمة ، بالإضافة إلى المشكلات التى تواجهها الثقافة في مصر والعالم العربى ، أو فى جميع أنحاء العالم . وأذكر ، على سبيل المثال أيضا ، دراسات قيمة عن الشعراء الأقدمين مثل أبى الطيب المتنبي وأبى نواس

وأبي العلاء المعري ، وأخريات عن مسرح توفيق الحكيم ، وعن نظريته في " التعادلية " ، وعن طه حسين وعن كتابيه في الشعر الجاهلي " ومع أبي العلاء في سجنه " ، وعن مساهمات ساطع الحصري في أبحاثه عن القومية العربية ، وعن شعر صلاح عبد الصبور ، وعدد من الدراسات عن الأدب الأمريكي المعاصر ، وعن الأدب الروسي ، وعن الأدب الإنجليزي منذ العصر الفيكتوري وحتى وقت كتابة تلك الدراسة ، وعن شيكسبير ومسرحه ... الخ .

وكانت المجلة تنشر أيضا إنتاج الزملاء القصصي والشعري ، وبصفة خاصة الأعمال التي تحتل المراكز الثلاثة الأولى في مسابقات القصة القصيرة ، تلك المسابقات التي سنتحدث عنها فيما بعد .

ولم يكن من الممكن بالطبع عمل أكثر من نسخه واحدة من المجلة ، لذلك فقد كان الزملاء يستعيرونها بالدور . وكثيرا ما كان زميل يستعيروها لنفسه ، لكن عددا آخر ممكن يقيمون في نفس زنناته يقرأها في نفس الوقت . وكان ذلك صعبا بالطبع ، لكن لم تكن هناك وسيلة أخرى . وكثيرا ما كان عدد من

الزملاء لا يرى المجلة إلا بعد صدورها بشهرين أو ثلاثة ، ولكن ذلك على أي حال كان أفضل من عدم وجودها .

ولاشك أن " الثقافة الجديدة " لعبت ، إلى جانب جامعة الشهيد شعبان حافظ والمسرح ، دورا هاما في تبادل الخبرات والأفكار بين الزملاء ، كما ساعدتهم على إبراز مواهبهم ومناقشتها مع الآخرين ، وجعلتهم يشعرون أن وقتهم لا يضيع هباء خلال فترة قاسية من أعمارهم ، كما ساهمت في رفع روحهم المعنوية ، وجعلتهم يتحملون تلك الظروف بقوة وشجاعة . كما أنها فتحت أمام عدد من الزملاء العمال والفلاحين أفقا من الثقافة كانت بعيدة عن متناولهم ، فرفعت من قدراتهم الثقافية والذهنية .

وعندما تم ترحيل جميع المعتقلين والمسجونين إلى القاهرة تمهيدا للإفراج عنهم في شهر مارس ١٩٦٤ ، قامت المباحث العامة بتفتيش الجميع ، وصادرت كل ما معهم من أوراق ، ومنها جميع أعداد " الثقافة الجديدة " وعدد هائل من الروايات والقصص والأبحاث ، مع وعد بردها بعد قراءتها والتأكد من أنها لا تحوي كتابات ممنوعة تحض " على قلب نظام الحكم "

على حد قولهم . وعلى الرغم من المطالبات العديدة بتحقيق ذلك الوعد ، وعلى مرور ست وثلاثين عاما على الإفراج عن الجميع ، فإن المباحث العامة لم تبر بوعدها . ونرجو ألا تكون أعداد " الثقافة الجديدة " والروايات والقصص على الأقل ، قد تم إعدامها ، فهي وثائق تاريخية هامة ، من الممكن الرجوع إليها عند كتابة تاريخ هذه الفترة من الزمن .

وما أمكن إنقاذ من الإنتاج الأدبي والفني للزملاء في السجن هو الذي تم تهريبه إلى خارج السجن في فترات مختلفة ، حيث بقي مغبأ لدى العائلات أو الأصدقاء لحين فك أسر المسجونين والمعتقلين .

وتجدر الإشارة في هذا الصدد ، أن رجال الأمن صادروا ، عند إلقاء القبض على المهندس فوزي حبشي عام ١٩٧٥ ، على مخطوط لكتاب هام كان الدكتور لويس عوض قد كتبه في السجن وتم تهريبه ، بعنوان " حول قانون الذاتية ، أو الرد على فريدريك إنجلز ". وكان هذا المخطوط ، الذي لم يكن قد نشر بعد ، هو النسخة الوحيدة من كتاب الدكتور لويس عوض . ونرجو أن يعثر عليه رجال المباحث العامة في أضيابيرهم ، خاصة

وأنة كتاب ينتقد جانبا هاما من أفكار أحد أكبر منظري الشيعوية ، وهو بذلك يمكن أن يكون مساعدا لهم في " مكافحتهم " للشيعوية . وبصرف النظر عن ذلك ، فأفكار الدكتور لويس عوض ، سواء اتفقنا أو اختلفنا معها ، جديرة بأن يقرأها المثقفون .

مسابقات القصة القصيرة

قام الزملاء خلال فترة سجنهم في الواحات ، بتنظيم عدد من المسابقات في القصة القصيرة للزملاء الهواة ، أي الذين لم يكونوا ينشرون القصة القصيرة قبل دخولهم السجن . وكان يتم نشر القصص الثلاث الفائزة بالجوائز الأولى في مجلة " الثقافة الجديدة " كما أسلفنا . كما كانت القصص الأخرى التي لم تفز بجوائز ، يتم تداولها للقراءة بين الزملاء .

ولو كانت النتيجة الوحيدة لهذه المسابقات هي تفتح موهبة عظيمة هي موهبة (المرحوم) عبد الحكيم قاسم ، لكان ذلك كافيا . لكن الواقع هو أن هذه المسابقات أتاحت ظهور مواهب أخرى كثيرة لكتاب أصبح لهم شأن بعد ذلك .

وعندما فاز عبد الحكيم قاسم بالجائزة الأولى في إحدى هذه المسابقات ، لم يكن قد نشر شيئا قبل ذلك . وربما تكون هذه الجائزة قد ساعدته معنويا على الاستمرار في الطريق الذي جعل منه بعد سنوات واحدا من أبرز كتّاب القصة في العالم العربي .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الطبيب الدكتور حمزة البسيوني ، فاز بالجائزة الأولى في إحدى هذه المسابقات عن قصة رقيقة جميلة ، لكنه للأسف لم يواصل الكتابة في حدود علمي .

وكانت لجان التحكيم ، وإن تدخل فيها إلى حد ما اعتبار تمثيل كافة الاتجاهات السياسية ، تتشكل من نقاد كبار مشهود بكفاءتهم في مجال النقد الأدبي ، لذلك فإن أحدا لم يشك مطلقا في نتائج منح الجوائز . وكانت الجوائز ، بالطبع ، علبة سجاير كاملة للجائزة الأولى ، وعشرة سجاير للثانية ، وخمسا للثالثة .

وقد حفزت فكرة مسابقات القصة القصيرة الزملاء على الكتابة ، ليس فقط لدخول المسابقات ، وإنما لحاجتهم إلى التعبير عما كان يجيش في صدورهم . وقد نشرت كتابات عديدة مما كتبه الزملاء في السجن بعد خروجهم للحرية ، أذكر منها - على سبيل المثال - رواية

" الشمندورة " (للمرحوم) محمد خليل قاسم ، ورواية عبد الستار الطويلة " الرجل الذي يعدو " ، التي نشرت مسلسلة على

حلقات في مجلة روزاليوسف قبل أن تصدر في كتاب ، كما كتب زين العابدين سليط مسرحية ، حولها بعد خروجه من السجن إلى سهرة تليفزيونية أخرجها محمد السيد عيسى ونالت قسطا كبيرا من النجاح ، عن مجموعة من رجال المقاومة في بورسعيد في فترة احتلال الإنجليز لها عام ١٩٥٦ ، تحصنوا في منزل مهجور ، ومعهم جثة أحد زملائهم ، هذا عدد غير وفير من القصص القصيرة .

كما كتب ألفريد فرج - كما أسلفنا - مسرحية " حلاق بغداد " وعددا من القصص القصيرة . وقد أصبحت " حلاق بغداد " من مسرحيات برنامج المسرح القومي ، يقدمها كل بضع سنوات حتى الآن . أما القصص ، فقد نشرت كلها .

وعلى الرغم من عدم تنظيم مسابقات للشعر ، إلا أن زملاء كثيرين كانوا يقرضونه ، ويقرأونه على الزملاء الآخرين ، أو ينسخونه ويتم تبادله . وكان من أبرز الشعراء الزميل (المرحوم) زكي مراد ، إذ كان شاعرا مجيدا جدا . لكن السياسة استحوذت على جل اهتمامه - فقد كان واحدا من أبرز القادة

السياسيين – فلم يعن كثيرا بتجميع شعره ونشره . وإلا لكان سيعد من كبار شعراء العربية المعاصرين .

وكان يكتب تقاريره السياسية دائما بلغة عربية سامية سلسة ، تعد نماذج رفيعة من الكتابة بالعربية ، يمكن أن تدخل تحت تصنيف الأدب ، على الرغم من موضوعاتها التي قد تبدو جافة لا تمت للأدب بصلة .

أوجه نشاط أخرى

إلى جانب ما تقدم ، كانت هناك أوجه نشاط ثقافي وفني أخرى في السجن ، وبصفة خاصة في مجال الفنون التشكيلية .

فقد تم تخصيص مكان مثلا للرسامين . وكان الزميلان (المرحوم) وليم اسحاق وداود عزيز ، الرسامان المعروفان ، يقيمان بصفة شبه دائمة تقريبا في هذا المرسم . وكان يتردد عليهما فيه بصفة مستمرة عدد من الزملاء ، أذكر منهم على سبيل المثال الزملاء (المرحوم) عبد الوهاب الجريتلي ومجدى نجيب والمهدوي ، وهو رسام من الإسكندرية . وكان كل من يريد أن يشاهد أعمال الرسم التي تتم في المرسم يستطيع زيارته في أي وقت . وقد رسم داود عزيز وعبد الوهاب الجريتلي " بورتريهات " لعدد كبير من الزملاء ، غير اللوحات التي كانا يرسمانها هما وليم اسحاق . ومعظم هذه اللوحات و " البورتريهات " لا تزال موجودة عند الزملاء .

وفي هذا الصدد أيضا ، تجدر الإشارة إلى أن الفنانة الكبيرة (المرحومة) إنجي أفلاطون ، (التي مع مجموعة كبيرة من

الزميلات ، متهن على سبيل المثال الفنانة محسنة توفيق ، وثرثا حبثث وثرثا ياسن ولبلى الشال وثرهن ، معتقلات فف سجن القناطر الئرفة) قد أنتجت عدا كبرا من اللوات الرائة خلال فترة اعتقالها ، والى أصبحت أسعارها فف سوق الفن التشكلى مرتفعة جدا .

وهذه المناسبة أيضا ، كانت معظم المعتقلات فف سجن القناطر إما زوات لزملاء مسجونن أو معتقلن فف السجون المختلفة ، وإما مخطوبات لزملاء آثرن ، أو تربطن علاقات حب بالبعض الآخر . وكان المسجونون والمعتقلون يتبادلون الرسائل المهرفة مع زواتهم وخطبائهم وحببائهم المعتقلات بوسائل وأساليب متعددة . كان الأمر سهلا نسبيا لمن فف سجن القناطر . أما بالنسبة للزملاء الموجودن فف سجون أخرى ، فكانت المسألة أشد صعوبة ، إذ كان فف تعفن تهرفب الرسالة من السجن الآخر ، إما إلى الخارج ، فف فعاا تهرفبها ثانية إلى سجن القناطر ، مباشرة إلى سجن النساء - ولكن ذلك لم ففن متاحا دائما - أو ، فف معظم الأحيان إلى الزملاء فف سجن الرجال ، الذن ففرفبونها بدورهم إلى سجن النساء بالئرفة الفف اكتسبوها .

وتسلل رسائل الزميلات الطريق العكسي . وكثيرا ما كان من يحملون الرسائل المهربة يتصورون أنهم ينقلون رسائل سياسية هامة ، ولا يعرفون أن كلمات الحب والأشواق تكاد تلهب الأوراق التي يحملونه .

وكانت هناك نافذة في جانب من أحد عنابر سجن الرجال ، تطل - من مسافة بعيدة جدا - على نافذة في جانب من سجن النساء . وعلى الرغم من أن الرؤية كانت شبه متعذرة ، نظرا لأن مسجونات الجرائم العادية كن دائمات التجمع بكثافة عند نافذة سجنهن من جهة ، ونظرا لأن المسافة بعيدة جدا ، كان كل زميل يحدد لزوجته أو خطيبته أو حبيبته ، مواعيد معينة لتقفن في الشباك حتى يستطيع مجرد لمحها لمحة سريعة ، يتعرف على شخصها بقلبه أكثر مما يراها بعينه . وكان الزملاء المعتقلون في السجون الأخرى يحسدون من يوجدون في سجن القناطر الخيرية لمجرد أنهم يستطيعون لمح رفيقاتهم . وقد استوحى المخرج محمد فاضل ما سمعه من الزملاء بهذا الصدد في فيلم " الحب في الزنزانة " الذي قام ببطولته عادل إمام وسعاد حسني .

ونعود إلى سجن الواحات ، فنشير أيضا إلى مجدي نجيب كان يرسم - على أطرف بريد - كروتا جميلة للزملاء الذين يريدون إرسال تهنئة بمناسبة ما لأب أو أم أو زوجة أو ابنة أو صديق . وكانت هذه الكروت تشيع جوا من التفاؤل والغبطة لمن يتلقاها .

نفس الفكرة ، لكن بصورة مختلفة ، كان ينفذها الزميل محمود السكران . كان يستخدم عظام الذبائح التي كانت تمد السجن باللحم اللازم لإطعام المأمور والضباط والسجانة والمسجونين والمعتقلين ، ليصنع منه تحفا صغيرة ، مثل الملاعق العاجية التي تباع للسياح في جميع أنحاء العالم ، ومثل فتاحات الخطابات العاجية ، لكنها مزينة بنحت جميل ، ومثل المسابح .

ولم تكن عظام الذبائح بكل تأكيد في مثل جمال العاج ، لكن محمود السكران كان يصقلها بصبر شديد حتى يقترب شكلها بالفعل من شكل العاج . وكانت هذه الهدايا البسيطة للأهل والأصدقاء ، دليلا على أن المسجونين والمعتقلين لم يستسلموا لظروفهم ، وأنهم لا يضيعون وقتهم في انتظار الإفراج عنهم .

وكان هناك أيضا مكان تم تخصيصه للنحت . وكان الزميلان (المرحوم) حسن فؤاد وصبحي الشاروني يقومان فيه بأعمال النحت ، ويتعليم هذا الفن لمن يرغب في ذلك . وفي هذا المكان ، نفذ صبحي الشاروني حمامة السلام الضخمة التي علقت على واجهة المسرح ، كما سبق قوله . كذلك قام بعمل لوحتين من النحت الغائر (على الطريقة المصرية القديمة) ، قام المأمور بتثبيتها على جانبي مدخل السجن الرئيسي ، فأضفت عليه رونقا ، وجعلته أشبه بالمتحف منه للسجن .

سهرات ترفيحية

طوال شهر رمضان المعظم ، كانت تقام كل ليلة سهرة ، في
طريقة العنبر أول الأمر ، ثم في المسرح بعد بنائه . وكان نجما هذه
السهرات الرمضانية بلا منازع ، شاعر العامية الكبير (المرحوم)
فؤاد حداد ، والمهندس الشاب (وقتها) محمد حمام .

ففي رمضان ١٩٦١ ، كان فؤاد حداد يتلو على المسجونين
والمعتقلين كل ليلة جزءا من ملحمته الشعرية الرائعة " الشاطر
حسن " التي قدمها بعد ذلك على حلقات في التليفزيون . وكان
يسحر الجميع بجمال شعره وروعة إلقاءه ، فيعيشون معه
مغامرات الشاطر حسن ، الذي ينتصر دائما للحق ، ويصارع
ضد الباطل في كل مكان ، باحثا عن ست الحسن والجمال ، أو
مخلصا إياها من الأخطار التي تتعرض لها ، أو يحقق لها شيئا
طلبته منه . وكانت بعض المقاطع قد تم تلحينها ، ويغنيها محمد
حمام بصوته " الإفريقي العميق " ، كما وصفه (المرحوم)
الدكتور لويس عوض .

من جهة أخرى ، كان محمد حمام ، بعد انتهاء فؤاد حداد من الجزء الخاص بالليلة من " الشاطر حسن " يغني بعض الأغاني النوبية ، بعد أن يشرح الأغنية والمناسبة التي تغنى فيها .

وكان زملاء آخرون يشاركون في هذه السهرات ، سواء بأغان أو برواية ذكريات طريفة ، أو ببعض النكات ، أو غير ذلك من سبل الترفيه .

وفي عامي ١٩٦٢ و ١٩٦٣ ، وعلى خشبة المسرح الذي كان بناؤه قد اكتمل ، كان فؤاد حداد يتلو " المسحراتي " ، تلك المقطوعات الشعرية التي لاقت نجاحا منقطع النظير عندما أنشدها هي الأخرى في التليفزيون ، بالإضافة طبعا لما يقدمه الزملاء الآخرون لتمضية تلك السهرات .

وقد ساهمت هذه السهرات في أن يعيش المسجونون والمعتقلون في جو رمضاني ، قد يكون مختلفا عن السهرات الرمضانية في الخارج ، لكنه على أية حال جو يختلف عما يعيشونه كل يوم ، ويجعل من ليالي رمضان شيئا مميزا في السجن ، لا تزول من ذاكرة من عاشوها .

ولم تكن السهرات الرمضانية أو سهرات العروض المسرحية ، هي النشاط الترفيهي الوحيد في الواحات أو في غيرها من السجون .

فخلال الفترة التي كانت الزنازين فيها تغلق أبوابها عند غروب الشمس ، كان المسجونون والمعتقلون في معظم الزنازين - إن لم يكن كلها - ينظمون نشاطا ترفيهيا بعد تناول طعام العشاء والشاي . وكان هذا النشاط يختلف باختلاف الزنازة . وسنحاول أن نعطي أمثلة قليلة عن مثل هذا النشاط .

فمن أبسط أنواع هذا النشاط الترفيهي ، أن يقوم زميل يتم اختياره بالقرعة ، بتلاوة بيت من الشعر العربي (القديم في العادة) . وعلى الزميل الذي يليه أن يقول فوراً بيتاً آخر من قصيدة أخرى ، يبدأ بنفس الحرف الذي انتهى به البيت الأول ، وهكذا . وإذا تردد الزميل الذي عليه الدور ، أو صمت لمدة تزيد عن خمس ثوان ، ينتقل الدور على الزميل الذي يليه ، ويخرج من اللعبة من يفشل في تذكر بيت شعري يبدأ بالحرف الأخير من آخر بيت قيل . ويستمر اللعب هكذا حتى يخرج فائز واحد في آخر اللعبة ، ثم تبدأ الدورة من جديد بجميع سكان الزنازة .

وأذكر أن الزميلين محمد مستجير وإبراهيم فتحي كانا هما الفائزان في معظم الأحيان في الزنزانة التي كنت بها .

وكانت تنظم أيضا حفلات سمر ، يتم الإعداد لها بدقة قبلها بيومين على الأقل . وفي هذه الحفلات كانت تقدم فقرات تشبه إلى حد بعيد الفقرات التي كان طلبة الجامعة يقدمونها في معسكراتهم الصيفية ، لكن يضاف إليها فقرات أخرى ، مثل إجراء " محاكمة عسكرية " كاريكاتيرية لأحد الزملاء ، على غرار المحاكمات العسكرية التي كان السياسيون يتعرضون لها أيامها ، ومسابقات مسلية وطريفة في المعلومات العامة .

وكان يتم أحيانا تأليف مقدمة وخاتمة غنائية لحفلة السمر . وأذكر في هذا الصدد أن الزميل نبيل الهلالي ألف أغنية طريفة على لحن مقدمة المسلسل الإذاعي الذي حقق عام ١٩٥٧ نجاحا منقطع النظير ، " حسن ونعيمة " للشاعر المرحوم عبد الرحمن الخميسي ، والذي تحول في العام التالي إلى فيلم سينمائي أخرجه هنري بركات ومثلت فيه لأول مرة الفاتنة المتألقة سعاد حسني .

كذلك كان هناك عدد من " المجلات الناطقة " ، قبل أن يصبح الورق والأقلام متوفرة . وكانت هذه المجلات الناطقة على مستوى عال . أذكر مثلا أن (المرحوم) إبراهيم عامر ، نائب رئيس تحرير جريدة " الجمهورية " الأسبق ومدير تحرير مجلة " المصور " كان يقدم في مجلة " الأفق " مسلسلا أسبوعيا عن شارلي شابلن عنوانه " عصا وقبعة " ، بدأه بالصبي الصغير ذي الأربعة عشر عاما . الذي يقدم فقرات ضاحكة في إحدى حانات لندن . وانتهى بالممثل العالمي الفريد الذي أخرج ومثل العديد من الأفلام منها على سبيل المثال " أضواء المسرح " و " مسيو فيردو " و " ملك في نيويورك " و " العصور الحديثة " . وكانت هذه المجلات تضم مقالات وتعليقات وأخبارا ، بل وطرائف . وقد تألق في المقالات السياسية الساخرة رئيس تحرير " الأفق " الصحفي الكبير الزميل (المرحوم) فيليب جلاب ، الذي كان حتى وفاته المبكرة رئيسا لتحرير جريدة " الأهالي " . وكانت هذه المقالات الناطقة " تثير كثيرا من التعليقات والمناقشات بسبب موهبة فيليب جلاب الفذة على إثارة أهم المشكلات وأعقدها بصورة مبسطة ولكن عميقة ، وفي قالب فكاهي أحيانا . وبسخرية مريرة أحيانا أخرى .

تنظيم الأحوال المعيشية

" الحياة العامة "

كانت الحياة المعيشية في السجن منظمة إلى حد بعيد . وإذا ضربنا مثلا بالفترة التي كانت الزنازين فيها مغلقة على المسجونين والمعتقلين منذ ساعة الغروب وحتى صباح اليوم التالي ، كان يتم توزيع المهام على المقيمين في الزنزانة ، والذين كان عددهم يتراوح - كما سبق القول - بين اثني عشر وخمسة عشر شخصا . فكان هناك اثنان لإعادة طهي الطعام (كما سيأتي فيما بعد) ، يتبادلان العمل كما يحلو لهما . وكان هناك واحد مهمته عمل الشاي بعد العشاء يوميا وتوزيعه على الجميع . وكان هناك اثنان أو ثلاثة مهمتهم ملئ جرادل مياه الشرب ، ولفهما بالخيش ، وبهذا الخيش باستمرار ووضع الجردل في مكان به تيار هواء حتى يكون الماء باردا بصفة مستمرة (بل إنه في الواقع كان مثلجا تقريبا ، لأن تيارات الهواء كانت لا تتوقف) . وكان هناك ثلاثة مهمتهم غسل أواني الطعام وصفها في مكانها الخاص بعد تناول وجبات الطعام . والباقون كانت مهمتهم العناية بنظافة

الزنانة ، ومسح أرضيتها مرتين في اليوم . أما النظافة العامة لطرقات العنبر ، فكانت مسئولية زنانة من الزنازين العشرين بالتناوب كل يوم .

وكان تنظيم المالية العامة هي إحدى الوسائل الهامة لكي تصبح الحياة في السجن محتملة . كان من حق كل مسجون ومعتقل أن يتلقى من أهله في الخارج أي مبلغ ، يوضع في أمانات السجن ، ويسجل في دفاتر الكانتين . وكان من حق كل من له أمانات أن يشتري من الكانتين ما يتوفر فيه ، في حدود عشرة جنيهات في الشهر (وهو مبلغ كبير وقتها) . وكانت البضائع التي توجد في الكانتين عادة هي ، إلى جانب السجائر والكبريت ، الطحينة والحلاوة الطحينية ، وبعض أنواع البسكويت ، وبعض أنواع العلب المحفوظة (مثل اللانشون والبلوبيف وسمك التونة والسردين ، واللبن المركز والخضروات المطهية ... الخ) ، والزبد ، بل وعلب السمن البادي . ويخصم موظف الكانتين ثمن ما اشتراه المسجون أو المعتقل من حسابه المدون لديه في الدفاتر ، في حدود الجنيهات العشرة كل شهر .

ولما كان العدد الأكبر من المسجونين والمعتقلين ينتمون لتنظيمات مختلفة ، إلى جانب المستقلين ، فقد كان من الضروري أن يتفق المسئولون عن تمثيلهم في جماعة لتنظيم المالية العامة للمجموع ، ويشكلون لجنة تسمى لجنة الحياة العامة لإدارة هذه المالية . لذلك كانت تحدد نسبة ما يذهب إلى لجنة الحياة العامة من كل مبلغ يدخل أمانات كل مسجون ومعتقل . وكانت هذه النسبة تتراوح غالبا ما بين ٧٠ و ٧٥ في المائة ، ونادرا ما كانت أقل من ذلك . أما الباقي ، فكان كل تنظيم يحدد ما يتركه لصاحب المال وما يحتاجه للعمل الحزبي . وهكذا كان النصيب الخاص للفرد الذي ينتمي لأحد التنظيمات مما يرسله له أهله يتراوح عادة ما بين ٥ أو ١٠ في المائة . أما المستقلون ، فإن من يقبل منهم الانضمام إلى نظام الحياة العامة (وكانت الأغلبية الساحقة منهم تنضم إليه) ، فهم يحتفظون لأنفسهم بما تبقى لهم بعد دفع نصيب الحياة العامة . وكان بعضهم يقتسم ما تبقى له أو نسبة منه مع باقي أفراد الزنزانة التي يوجد بها .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه يصعب جدا على المدخن أن يكتفي بسيجارتين يوميا في أسوأ الأحوال ، أو بخمس في أفضلها . وكان لابد من ابتكار حل لهذه المشكلة . وكان الحل هو أن يشترك كل زميلين أو ثلاثة فيما أطلق عليه اسم " الكميونة " ، فيجمعون نصيبهم اليومي من السجائر ويدخنون سويا سيجارة واحدة كل بضع ساعات . أما عندما يكون نصيب الفرد سيجارتين فقط ، فقد كان يتم قسم السيجارة الواحدة إلى قسمين ، ويتم تدخين نصف سيجارة بنفس الصورة في المرة الواحدة . ولكي لا يفقد المدخنون أي جزء من الدخان ، كانوا يصنعون من غصون الأشجار الصغيرة " فما " يضعون فيه نصف السيجارة ، ويدخنونه حتى الثمالة !

ولما كان كل فرد لا يحق له أن يستفيد بأكثر من عشر جنميات في الشهر من الكانتين ، فقد كانت أسر الزملاء الموسرين ترسل حوالات بريدية بأسماء الزملاء الذين كانت ظروف أسرهم لا تسمح لها بإرسال نقود لهم ، زيادة عن حوالات الجنميات العشرة التي يرسلونها لذويهم .

كانت لجنة الحياة تتشكل من خمسة أو ستة أشخاص ، يمثل كل منهم تنظيما ، بالإضافة إلى ممثل عن المستقلين . وكان لابد لقراراتها أن تكون بإجماع الآراء ، إذ أنه لا يتصور أن يقبل تنظيم ما بأن تتفق التنظيمات الأخرى وتفرض عليه أمرا . فإذا استحال التوصل إلى الإجماع ، يمكن البحث عن حل آخر . أما إذا تعذر الوصول إلى إتفاق في إطار اللجنة ، فإن الأمر يحال إلى كبار مسؤولي التنظيمات لكي يجتمعوا سويا ويتفقوا على حل . لكن ذلك لم يحدث - في حدود علي - إلا مرة واحدة في سجن الواحات على الأقل .

أما في إطار لجنة الحياة العامة ذاتها ، فكثيرا ما كانت تحدث خلافات حادة . لكن هذه الخلافات في معظم الحالات لم تكن مطلقا ذات طابع سياسي ، وإنما بسبب تصادم نظرتين مختلفتين للأمر . فبعض الزملاء كان يرى أن اللجنة يجب أن يكون تحت يدها احتياطي من السجائر والمأكولات ، حتى إذا ما انخفض الدخل في أحد الشهور لسبب أو آخر ، لا تضطر اللجنة إلى تخفيض نصيب الفرد ، بينما يرى الآخرون أن ظروف السجن غير مضمونة ، وأنه من الأفضل توزيع كل ما لديها ،

حتى لو اضطرت لتخفيض نصيب الفرد إذا ما انخفض الدخل لسبب أو آخر .

وبصورة عامة ، كانت اللجنة تحدد الاحتياجات من كل صنف يمكن شراؤه من الكانتين ، وتحدد لكل زميل ما يجب عليه شراؤه في حدود النسبة المخصصة لها ، ثم تجمع كل ما تم شراؤه وتقوم بعد ذلك بتوزيعه على الزنازين بنسبة من فيها من الأفراد ، باستثناء السجائر ، التي كانت توزع صباح كل يوم ، بعد تحديد نصيب الفرد ، وتحديد احتياجات الخدمات الخاصة (مثل نصيب المدرسين في نصيب في جامعة الشهيد شعبان حافظ ، والمحاضرين ، وأعضاء الفرقة المسرحية التي تتأهب لتقديم عرض ، وغير ذلك من ألوان النشاط العام التي يتقرر لها نصيب إضافي من السجائر) وما يقدمه أعضاء اللجنة ومندوبو الاتصال بالإدارة للسجانة كل يوم (ولم يكن كثيرا ، وإنما للتحية فقط) .

وكانت تحدث بالطبع مشاحنات خفيفة من حين لآخر بين الزملاء وأعضاء لجنة الحياة العامة ، لكنها كانت تنتهي عادة بمزحة أو نكتة . أذكر مثلا أن أحد الزملاء طلب من عضو لجنة

الحياة العامة الذي ينتهى لنفس التنظيم الذي هو عضو فيه ، ذات يوم أن يعطيه سيجارة إضافية لأنه يكتب موضوعا عويصا يحتاج منه لتركيز شديد . وبالطبع ، رفض عضو اللجنة ذلك الطلب وأنبه عليه ، فما كان من الزميل إلا أن قال له :

أنت تريد أن تقنعنا أنك عادل مثل عمر بن الخطاب ، لكنك في الواقع عمر بن الخطاب !-

وصار هذا الاسم كنية لهذا الزميل بعد ذلك .

وكانت إدارة السجن ، بأوامر من المباحث العامة على الأرجح ، تحاول - وبصفة خاصة في الظروف الصعبة - أن تمنع عمل لجنة الحياة العامة ، فكانت مثلا تصدر السجائر والمأكولات التي يشترها المسجونون والمعتقلون رسميا من الكانتين إذا وجدت كمية كبيرة منها عند أحد الزملاء . وكان الرد على ذلك هو أن يحتفظ كل زميل عنده بما اشتراه فقط ، ويتصرف فيه بناء على تعليمات لجنة الحياة العامة . وعلى الرغم من تعقيد هذه العملية ، فإنها كانت تتم على خير ما يرام .

وقد أدهشنا أن الإخوان المسلمين ، الذين كانوا معنا في نفس السجن ، لم يطبقوا هذا النظام أو أي نظام مشابه . فقد كان كل " أخ " يحتفظ لنفسه بما يصله من أموال ، بل وكان إذا تعطف على أحد " الإخوة " بشيء من المأكولات ، فإنه كان يعتبر أنه يتصدق عليه . وكان بعضهم يدفع لأخ آخر لكي يخدمه ويغسل له ثيابه وينظف له مكان نومه وما إلى ذلك . وأعترف أن هذا الموقف أصابني - ولا زال يصيبني - بالدهشة .

أما مندوبو الاتصال بالإدارة ، فكان يختارهم المسئولون السياسيون . ولم يكن يحق لأحد غيرهم الاتصال بإدارة السجن ، حتى لو طلبت إدارة السجن مسجوننا ، كان عليه أن يقول إن المندوب هو الذى يمثله ، أو يتوجه إلى الإدارة مع المندوب في الحالات التي كانت هناك فعلا مشكلة خاصة بالزميل المطلوب يتعين وجوده في مبنى الإدارة بالفعل . وكان المقصود من هذا الإجراء ألا تستفرد إدارة السجن بأحد المسجونين أو المعتقلين وتفرض عليه شيئا ضد مصلحته أو ضد مصلحة مجموع المسجونين والمعتقلين .

وكان يتم اختيار مندوبى الإدارة من بين الزملاء المشهود لهم بالصبر والمرح والدبلوماسية في التعامل . أما المستقلون ، فلم يكن هناك ما يقيدهم باحترام هذه القاعدة ، وإن معظمهم قد احترامها .

ومن أبرز الزملاء الذين نجحوا في أن يكونوا أحسن الممثلين للمسجونين والمعتقلين لدى إدارة السجن (المرحوم) سعد عبد اللطيف المحامي السكندري ، ووليم طنبوس أفرايم رجل الأعمال الناجح الذي كان يطلق عليه لقب ملك الأناقة ، نظرا لعنايته الشديدة بنظافة ملابسه وكما (وهي على أية حال ملابس السجن) ، وسيد عبد الله المحاسب ، الزميل الرقيق الحازم في آن واحد ، و (المرحوم) محمد شبل إسماعيل ، ابن العمدة الصعيدي ، الذي انتخب بعد خروجه من السجن ببضع سنوات نائبا عن بنى سويف في مجلس الشعب .

النشاط الرياضي

لم يكن النشاط الرياضي ضروريا خلال عامي ١٩٦٠ و١٩٦١ ، فقد كان المعتقلون يقومون بجهد عضلي فرضته عليهم السلطات فرضا . كانوا يحفرون قنوات ويخططون حقولا في الصحراء بدعوى استصلاح الأرض انتظارا لوصول مياه لم تصل أبدا . واستمر بذل المجهود العضلي عندما أخذوا يستصلحون حقا الأرض التي أصبحت مزرعة السجن . وكل هذه الجهود العضلية كانت في واقع الأمر رياضة للأجسام ، تغني عن تنظيم نشاط رياضي .

ولكن ، بعد الانتهاء من استصلاح أرض المزرعة ، توقف بذل المجهود العضلي ، لذلك كان لا بد من القيام بنشاط رياضي ، حتى تظل الحالة الصحية للمسجونين والمعتقلين في المستوى اللازم لصيانتها .

وكان حمام السباحة ، الذي تم حفره لتجميع المياه الازمة لري المزرعة ، هو بداية الاهتمام بالنشاط الرياضي .

كان هذا الحوض ، كما سبق الإشارة ، ذا جدران من الصلصال والطين ، جري " تديبشها " فيما بعد كما سبق ، لذلك فهو لم يكن حمام سباحة نموذجيا ، لكنه كان يفي بحاجة من يريد ممارسة رياضة السباحة . لم يكن هذا الحمام عميقا ، فعمقه لم يتجاوز مترا واحدا ، لكن ذلك كان كافيا . أما طوله فكان نحو اثني عشر مترا وعرضه نحو ستة أمتار .

وقد قام الزملاء بعمل أردية للسباحة من سراويل بدل السجن ، فكانت كلها من اللونين الأبيض أو الأزرق ، متشابهة الشكل . وكان " حمام السباحة " هذا يمتلىء بالسباحين ساعة العصر ، ويظل بعضهم يمارس رياضته المفضلة حتى قبل الغروب بقليل . وساهمت ممارسة رياضة السباحة في الحفاظ على نشاط الزملاء وعلى سلامة أجسادهم . وكان الزملاء الأطباء كثيرا ما يدفعون الزملاء الذين لا يشاركون في النشاط إلى ممارسته .

وكانت رياضة السير تحظى هي الأخرى بحظ وافر من الممارسة ، وكثير من الناس لا يعدون السير رياضة ، لكنهم يخطئون خطأ كبيرا . فمعظم الأطباء في العالم كله ينصحون الناس برياضة

السير ، لأن رياضة الجري أو الركض تضعف القلب على المدى الطويل ، بينما رياضة السير على العكس من ذلك ، تساعد على تنشيط القلب بدون أن ترهقه .

كان هناك طريق مسفلت يمتد من مبنى إدارة السجن وحتى الباب الخلفي للسجن ، حيث الطريق الذي يؤدي إلى منازل المأمور والضباط والسجانة ، وإلى المزرعة ثم يتوقف . وكان هذا هو الطريق الذي تسلكه السيارات التي تقل المأمور والضباط من منازلهم إلى مكاتهم في الصباح ، وبالعكس بعد إغلاق السجن عند الغروب . وكان الزملاء يقطعون الطريق الممتد داخل السجن - الذي يبلغ طوله نحو ثلاثمائة متر - ذهابا وإيابا وهم يتبادلون الأحاديث ، عشرات وعشرات المرات . وكان يمكنك أن ترى ، في أي ساعة من ساعات النهار ، العشرات ، وأحيانا المئات ، من الزملاء يقطعون هذا الطريق - الذي أطلقوا عليه اسم " الكورنيش " - ذهابا وإيابا وهم يتبادلون الأحاديث . وكان يمكنك أن تستمع إلى أحاديث في السياسة وفي الأدب وفي المسرح وفي مختلف أنواع الفنون ، كما تستمع إلى من يروي لأحد أصدقائه جانبا من حياته ، أو يعترف له بأدق

أسراره العائلية ، أو يحكي له تجاربه مع التنظيم الذي ينتهي إليه .. باختصار ، كان الزملاء يتبادلون خلال سيرهم جميع أنواع الأحاديث التي يمكن أن تتخيلها .

وقد يكون من الصعب على من لم يمر بتجربة السجن لمدة طويلة أن يدرك كم يكون المسجون أو المعتقل في حاجة إلى أن يقص جوانب من حياته لصديق ، وكأنه يريد أن يثبت له ، بل ربما لنفسه أولا ، أن حياته خارج السجن كانت ذات قيمة ومعنى ، وأنها لم تكن مجرد أيام عاشها كما يعيش الأشخاص الآخرون . فهو يشعر في السجن أن الحياة متوقفة بالنسبة له ، وأنه لم يحقق الكثير مما كان يطمح إلى تحقيقه ، لذلك فهو يريد أن يؤكد ، ولو لنفسه فقط ، أنه أنجز شيئا ما قبل دخوله السجن .

على أية حال ، لاشك أن هذا السير أيضا ساهم في احتفاظ الزملاء بلياقتهم البدنية .

ولكن كل ذلك لم يمنع الزملاء من محاولة ابتكار أنواع أخرى من النشاط الرياضي المسلية ، فقد أقاموا خلف المسرح مكانا

كانوا يمارسون فيه رياضة رفع الأثقال . استخدموا حديدا من حديد التسليح كعوارض ، إحداها طويلة ، والأخرين قصيرتين . فالطويلة لرفع الأثقال باليدين ، والقصيرتان تستخدم واحدة لكل يد . ثم صبوا أسطوانات من الأسمنت والزلط مختلفة الأوزان ، لكن من كل وزن اسطوانتين ، في وسط كل منها ثقب يدخل فيه العارض الحديدي ، فتصبح مثل أدوات رياضة حمل الأثقال العادية . وكان يمكن وضع أكثر من اسطوانة في العارض الحديدي . كما أنشأوا " دكة " من الأسفلت ، يستطيع من يمارس هذه الرياضة أن يستلقي عليها ، ويرفع الأثقال وهو راقد على ظهره .

كذلك أنشأ المسجونون والمعتقلون ملعبا " للتنس " بجوار المسرح . قاموا بدك الأرض بقدر الإمكان ، ثم وضعوا شبكة للفصل بين اللاعبين ، وكانوا يخططون الملعب بالجير كلما أرادوا اللعب لم يكن لديهم مضارب تنس ، فكانوا يستعيضون عنها بمضارب خشبية ، من تلك التي تستخدم على شواطئ البحار . أما الكرات ، فكانت كرات تنس حقيقية .

وكانت تقام مسابقات في اللعب . وفي معظم الأحيان ، كان الزميل حسني تمام هو الأول في ترتيب اللاعبين .

وكان المسجونون والمعتقلون ، وبصفة خاصة صغار السن ، يلعبون أيضا كرة القدم ، سواء بكرة تنس أو بكرة يصنعونها من بقايا الملابس القديمة .

وهكذا كان الزملاء يقومون بألوان من النشاط الرياضي التي تسمح بها الإمكانيات التي لديهم ليحافظوا على لياقتهم البدنية ، ولكي يسلوا أنفسهم .

طهو الطعام

أجاركم الله من طعام السجن .. وباستثناء الخبز ، فإن تناوله هو عملية تعذيب في حد ذاته .

ونظام الطعام أولاً في جميع السجون المصرية (وليس المعتقلات) يتلخص في الجبن يومًا والعسل الأسود في اليوم التالي ، لطعام الإفطار. والجبن يطلقون عليه اسم " جبن قريش " لكنها تسمية على غير مسمى . فقطعة الجبن عبارة عن كتلة بيضاء مما يشبه الجير المتكلس في حجم قبضة اليد لكل ثلاثة من المسجونين . وتفتيتها يحتاج لشاكوش وليس أقل من ذلك . فإذا نجحت في تفتيت هذه القطعة ، تحولت إلى شيء أقرب إلى الحصى الصغير. ويصعب جدًا أكلها بدون إضافة شيء من الزيت عليها ، لكن إدارة السجن لا تقدم هذا الزيت ، وإنما يمكن شراءه - على حساب المسجون - من الكانتين . أما بالنسبة للعسل الأسود ، فإن " المتعهد " - أي الرجل الذي رست عليه مناقصة توريد الطعام للسجن - يخلطه بالماء ، بنسب متساوية ، أي أن نصف الكمية من العسل ونصفها الآخر من الماء حتى يحقق ربحًا من عملية التوريد . ولا يعلم إلا الله نوع الماء الذي يضيفه

للعسل . وتكون النتيجة أن طعم العسل يكون - في معظم الأيام - حامضا ، وبصفة خاصة في فصل الصيف ، كما أنه يكون سائلا وليست له كثافة العسل الأسود المعروفة . ويضطر المسجون أن يخلطه بكمية كبيرة من الطحينه لكي يستطيع ازدراده ، والطحينه بدورها يمكن ، لمن يملك نقودا في الأمانات ، شراءها من الكانتين .

أما طعام الغداء فهو الفول جميع أيام الأسبوع بلا استثناء ، بالإضافة إلى أنه - أي الفول - هو طعام العشاء أيضا يومي الخميس والجمعة ، وأيام الإجازات الرسمية . ولا يمكن لخيالكم تصور نوع الفول الذي يقدم للمسجونين ، فهو لا يمت بأي صلة للفول المدمس الذي يأكله البشر ، وإنما هو فول العلف الذي يقدم غذاء للحيوانات . فحبته يبلغ حجمها أربعة أضعاف حجم حبة الفول المدمس . ولا يتم تدميسه بالطبع ، وإنما يجرى غليه في الماء حتى يصبح - بالكاد - قبلا للمضغ . ولو أن الأمر اقتصر على ذلك لكان هينا . وأرجو ألا أثير الغثيان عند القارئ عندما أشير إلى أن كل حبة من هذا الفول تضم ما بين أربع واثني عشرة " سوسة " (وهذه ليست مبالغة ، فقد كنا

نعد عدد السوس في كل حبة بالفعل) . ولايمكن بكل تأكيد وضع مثل هذا الفول في الفم . لذلك كان لابد من تقشير حبة حبة (وهي عملية ليست صعبة) ، ثم إخراج السوس من كل واحدة منها ، ثم هرس ما تبقى مع شيء من الزيت والطحينة ، حتى يمكن أكل هذا الفول .

وطعام العشاء خلال الأيام الخمسة الباقية من الأسبوع عبارة عن كمية من الأرز غير جيد الطهي ، وسائل ليس له طعم ولا رائحة ، علقته به قطع صغيرة من الخضار يصعب جدا معرفة كتمه ، بالإضافة إلى قطعة لا بأس بها من اللحم ، لكن كثيرا ما كان " الشغت " يشكل الجزء الأكبر منها .

هذا هو باختصار طعام السجنون في مصر .

أما في المعتقلات التي تشرف عليها المباحث العامة مباشرة والتي تتكون إدارتها من ضباط شرطة تختارهم المباحث العامة وليس من ضباط من مصلحة السجنون ، مثل معتقلي القلعة والفيوم ، فالطعام أفضل من ذلك كثيرا ، كما أن كمياته كافية بالفعل ، فرجال المباحث العامة يراقبون المتعهدين مراقبة حقيقية ،

ولا يسمحون لصغار الموظفين الذين يتسلمون الطعام ، بتقاضي الرشاوى من المتعهدين ليتغاضوا عن الكم والكيف عند التسلم ، مثلما هو الحال في السجون . كذلك فإن أنواع الطعام متنوعة ، بحيث يمكن أن يعيش عليها الإنسان .

وإحقاقا للحق ، فإن مأمور سجن الواحات (وهو سجن صغير جدا بالمقارنة بالسجون الأخرى) كان يراقب الأكل بقدر الإمكان . لذلك كان مستواه أفضل ألف مرة من مستواه في السجون الأخرى . فكان اللحم مثلا ممتازا . كما كان يقدم لطعام الغداء عدسا بدل الفول في معظم الأيام . وكان الفول ، عندما يقدمونه ، يكاد يكون خاليا من السوس . كما كان الجبن والعسل يؤكلان . ومع ذلك ، فقد كان من الصعب أن يزدرد المسجونون الخضار بالطريقة التي يتم طهيها في مطبخ السجن . لذلك كان المسجونون والمعتقلون يشترون البصل والسمن من الواحة (عن طريق السجانة وحراس السجن) ، ويعيدون طهيها في الزنازين ، عندما كانت الزنازين تغلق أبوابها عليهم . وبعد أن أصبحت أبواب الزنازين لا تغلق ليلا أو نهارا ، أقيم في طرف العنبر مطبخ كبير ، كان يتم فيه طهي الطعام

للجميع ، خاصة وأنه أصبحت لديهم خضراوات طازجة من المزرعة . وفي كلتا الحالتين ، كان الطعام يصبح آدميا ، بل ومستساغا .

والحقيقة أنه إذا كان الطعام مهما لأي إنسان ، فإن أهميته تتزايد بالنسبة للمسجون . فهو الوسيلة الرئيسية التي يحافظ بها على صحته وعلى لياقته البدنية . فهو لا يستطيع تعويض نقصه بوسيلة أخرى ، مثل تناول الفيتامينات أو الأدوية الأخرى .

وكان نفس الشيء تقريبا يتم في السجون الأخرى ، التي تكون زنازينها صغيرة تضم ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط . كانت إعادة طهي الطعام إذن تتم في كل السجون .

والطريقة البسيطة والبدائية لإشعال النار اللازمة للطهي كانت بإشعال " الحلاوة الطحينية " المخلوطة بورق الصحف ، حتى تستمر في الاشتعال لأطول مدة ممكنة . ولكن تلك الوسيلة كانت تستخدم في معتقلي القلعة والفيوم فقط ، لأن " الحلاوة الطحينية " كانت تتوافر فهما بكميات كبيرة من المتعهدين ، وكثير من الزملاء لا يحبونها . أما في السجون الأخرى ، فقد كان

لابد من ابتكار وسيلة بما هو متاح من إمكانيات لعمل نوع من المواقد يصلح للطهي . وهكذا تم اختراع " التوتو " ، وهو موقد بدائي يتم عمله من علب التونة والسلامون ، يتم ملؤها بالكيروسين ، ويعمل لها فتيل الإشعال من خيوط ملابس السجن . وأخذت صناعة " التوتو " تتقدم إلى أن أصبح أشبه بموقد حقيقي . وكان من الناحية العملية فعالا جدا لطهي الطعام .

والغريب أننا أصبحنا نرى الآن في الأسواق المصرية موقدا هو أقرب إلى " التوتو " الذي كان يصنعه المسجونون والمعتقلون في السجون المصرية ، وهو مستورد من الصين الشعبية !..

والواقع أن طهي الطعام يعد أحد عناصر الحضارة الإنسانية . فلا يمكن لمجتمع متخلف أن يبدع أصنافا رفيعة من الوجبات ، بل إن طعامها يكون بدائيا مثلها . والمجتمعات المتقدمة تبتدع في إعداد الطعام بل وفي طريقة تقديمه . لذلك كان من الصعب على المسجونين والمعتقلين أن يتذوقوا بسهولة ، طعاما رديئا إلى هذا الحد ، وكان لابد من إعادة التعامل معه حتى يصبح قابلا للأكل ..

وكان الزملاء في بعض المناسبات يعدون مشروبا أطلقوا عليه اسم " الهوبوب " . وطريقة إعداد الهوبوب هي جمع كمية من العسل الأسود ، وخلطه بالماء بنسبة الثلث عسل والثلثين ماء ، ثم تتم إذابة بضعة أقراص من خميرة البيرة في هذا الخليط ، وإغلاق القنينة التي يوجد بها إغلاقا محكما جدا ، ثم يتم دفنها تحت الأرض بمسافة نصف متر تقريبا لمدة أسبوع أو عشرة أيام . ويصبح هذا المزيج نوعا رديئا من الخمر ، لا بد من تجرع كمية كبيرة جدا منه كي يؤدي إلى السكر ، لكن الكميات المتاحة منه لم تكن أبدا كبيرة ، وإنما كانت تكفي على أي حال لأن يشعر شاربها بشيء من النشوة .

وعندما أصبحت ظروف السجن أكثر انفتاحا ، أصبح من الممكن الحصول - تهريبا بالطبع - على عرق البلح من سكان الواحة الخارجة ، بل وفي أحيان نادرة ، على زجاجة ويسكي من الخارج .

لكن شرب هذه الخمور كان يتم للاحتفال بمناسبات خاصة لا تتكرر كثيرا ، مثل الاحتفال بعيد ميلاد خاص لأحد الزملاء (كان يدخل في عقد جديد مثلا) أو غير ذلك من المناسبات الهامة

. وكانت ليلة رأس السنة أحد هذه المناسبات . لكنني أتحدث
عن ذلك حتى أعطي صورة صادقة عن الحياة في سجن
الواحات الخارجة .

النشاط في الظروف الصعبة

تحدثنا فيما سبق عن نشاط المسجونين والمعتقلين الشيوعيين في سجن الواحات الخارجة ، عندما قررت السلطات أن وجودهم في ذلك المنفى يكفي " لعقايمهم " لكن الأوضاع لم تكن كذلك طول الوقت ولا في جميع السجون . فقد كان المعتقلون الشيوعيين موزعين على عدة سجون ومعتقلات . فمنهم من كان في معتقل الفيوم ، ومن كان في سجن القناطر الخيرية ، ومن كان في أوردي ليمان أبي زعل ، بالإضافة إلى معتقل القلعة وسجن مصر ، اللذان كانا مجرد محطتين مؤقتتين ، لحين تحديد المكان الذي سينقل إليه نزلائهما .

وبالطبع ، لم تكن الظروف في أي من هذه السجون والمعتقلات هي نفس ظروف سجن الواحات الخارجة . كانت أبواب الزنازين مغلقة معظم الوقت ، والخروج إلى حوش السجن

أو المعتقل لا تزيد عن نصف ساعة صباحا ونصف ساعة بعد الظهر . وحتى الاستحمام وقضاء الحاجة كانا محددين بوقت في

الصباح ووقت بعد الظهر ، لم يكن يتجاوز بحال ثلاثين دقيقة في كل مرة .

فهل استسلم المعتقلون في السجون والمعتقلات الأخرى لهذه الأوضاع ، ووضعوا أيديهم على خدودهم في انتظار الإفراج عنهم أو نقلهم إلى الواحات ؟

لم يحدث ذلك ، وإنما حاول الزملاء بالوسائل القليلة التي تحت أيديهم ، بل وبدون أية وسائل تقريبا ، أن يتحدوا الظروف القاسية التي كانوا يعيشون في ظلها .

وكانت المعاملة في سجن أوردي ليمان أبي زعبل مثلا ، قاسية إلى أبعد الحدود ، حتى أن ضرب المعتقلين بهراوات السجناء ، كان يتم بصورة جماعية كل صباح قبل ذهابهم إلى المحاجر لتكسير حجارة البازلت ونقلها إلى مكان تخزينها ، بينما عصي السجناء تلهب ظهورهم بلا تمييز أثناء عملهم . وفي هذا السجن قتل شهدي عطية الشافعي تحت وطأة الضرب .

في هذا السجن ، الذي كان يتكون من ثلاثة عنابر ، كل منها يضم ستين معتقلا ، كان الزملاء يقيمون كل ليلة بعد تناول

طعام العشاء ، حفلة سمر ومسابقات في المعلومات العامة ، ينسون خلالها ، ولولمدة ساعتين أو أقل ، ما يلاقونه من عذاب طوال اليوم . كما كانت تنظم فيه المحاضرات العامة والمجلات الناطقة . وقد كان هذا النشاط البسيط أروع مقاومة لصنوف التعذيب والقهر ، مما سمح للزملاء بتجاوز هذه الظروف والخروج منها بدون أن تتأثر معنوياتهم كثيرا .

ولعل أغرب ما كان يحدث في هذا السجن الرهيب هو مباريات الشطرنج بدون رقعة ولا أحجار ، أي بمجرد تبادل النقلات شفويا . لم يكن يستطيع ذلك بالطبع سوى عدد يعد على أصابع اليد الواحدة من الزملاء ، أذكر منهم محمود أمين العالم و (المرحوم) الدكتور ثروت إلياس . ولم يكن الزملاء الذين يلعبون الشطرنج " مستظهرين " - كما كان العرب القدامى يسمون تلك الطريقة - في نفس العنبر دائما . ولما كان تبادل الحديث بين شخصين من عنبرين مختلفين محظور تماما ، وعقابه مريع ، فقد كان الزميلان اللذان يلعبان دورا ، ينتهزان فرصة لقاء خاطف في الجبل أثناء نقل قفة من الحجر الذي تم تكسيره ، لكي يتبادلا نقلة الشطرنج التالية . ويظلان يتبادلان

النقلات طوال أيام وأيام ، حتى يقول أحدهما للآخر " كش مات " . ولم يحدث أن اختلف زميلان على وضع القطع في الرقعة ، سواء أثناء اللعب أو عند انتهائه . فهل كان كاتب روائي ، مهما بلغ خياله ، يستطيع أن يخترع شيئا كهذا ؟ !

وبمناسبة الشطرنج ، فإن أول ما يفعله المسجونون والمعتقلون عندما يستقرون في سجن أو معتقل ما ، هو أن يستخرجوا لباب الخبز ويقصدونه . لكي يصنعوا منه قطع الشطرنج . البيضاء منها لباب الخبز كما هو ، والسوداء ، يحرقون ورقا ، ويخلطون رماده بلباب الخبز لصنعها . أما الرقعة ، فكانوا يرسمونها على البطاطين الداكنة اللون بالصابون . وهكذا ، فالشطرنج هو أول ما يقومون بصنعه وبلعبه .

وكان الزملاء يتفنونون في عمل قطع الشطرنج ، حتى أن بعضها كان قطعاً فنية فعلاً .

ونفس الأمر يحدث بالنسبة للعبة الطاولة ، وإن كان هواتها في جميع السجون والمعتقلات التي قدر لي أن أدخلها ، أقل عدداً بصورة ملحوظة من هواة الشطرنج . وكان زهر الطاولة يتم

صنعه بتسبيح أيدي فرشاة الأسنان ، حتى يمكن تشكيلها .
ويكون الزميل الذي يصنعها قد أعد كورا صغيرة من ورق علب
السجائر المفضض ، يغرسها في الأضلع الستة التي شكلها مما
كان يد فرشاة الأسنان . وهي لا تزال ساخنة ، ويتركها حتى تبرد ،
ثم يقوم بصقلها حتى تصبح زهرة طاولة جميلة . وكان الزهر
بالطبع متعدد الألوان ، مثلما تتعدد ألوان فرش الأسنان .

وكثيرا ما كانت تنظم مسابقات في الشطرنج ، يشارك فيها كل
من يرغب في ذلك ، وتجري التصفيات إلى أن يفوز أحد الزملاء
بالبطولة . وكان عدد لا بأس به ممن لا يشاركون في المسابقة ،
يتابعون المباريات الهامة باهتمام حقيقي .

وورق اللعب (الكوتشينة) كان أيضا متوفرا . وهو يصنع من
كرتون علب السجائر الفارغة . ويقوم الزملاء برسم الأوراق
ورقة ورقة على الجانب الداخلي من العلبة بعد فصل أجزائها ،
حتى تكتمل أوراق اللعب . وهنا أيضا كانوا يتفننون في رسم
أوراق اللعب ، بحيث تصبح عملا فنيا جميلا .

وكانت لعبة " البريدج " هي لعبتهم المفضلة بالكوتشينة ، فهي لعبة لا تعتمد على الحظ ، وإنما تحتاج لحساب معقد يستدعي درجة عالية من التركيز. لكن ذلك لا يمنع من أنهم كانوا يلعبون ألعابا أخرى بالورق ، مثل الكومي وغيره من الألعاب المسلية .

وحتى في السجون التي لا تضم زنازينها أكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص ، مثل سجن القناطر ، كان هؤلاء يحاولون ، بعد تناول طعام عشاءهم ، أن يقضوا أمسياتهم بطريقة مفيدة ، أو على الأقل مسلية . فإلى جانب ألعاب الشطرنج والطاولة والكوتشينة ، كانوا ينظمون كل ليلتين أو ثلاثة ، محاضرة يلقيها أحدهم في موضوع يعرفه معرفة جيدة . فالبعض كان يتحدث مثلا عن التاريخ الفرعوني ، وبصفة خاصة تلك الجوانب التي لا نقرأها في الكتب العادية أو في كتب المدارس ، والبعض كان يتحدث عن الأدب والشعر العربي ، وعن دولة غرناطة في الأندلس ، وكان المحامون مثلا يلقون محاضرات عن فلسفة القانون ونظرياته العامة ، ... الخ .

ولكي يستفيد الجميع ، كان الزملاء يتنقلون من زنزانة لأخرى حتى يلقون محاضراتهم بعد طعام العشاء ، لذلك فقد كانوا يتبادلون أماكنهم في الزنازين لليلة ، على الرغم من أن ذلك كان ممنوعا معنا باتا .

خاتمة

وأرجو ألا يعد القارئ كل ما رويته فيما سبق محاولة مني أن أجمل صورة المسجونين والمعتقلين الشيوعيين وأن أصورهم على أنهم رجال من معدن خاص ، فذلك لم يكن هدي في على الإطلاق . فإنني أعتقد أن كل إنسان تقريبا لا بد له ، إذا ما واجهته ظروف صعبة ، أن يحاول أن يكيف حياته بأفضل طريقة ممكنة ، وأن معدن الإنسان الحقيقي لا بد سيظهر في مثل هذه الظروف . واسمحوا لي أن أضرب مثلا على ذلك (إلى جانب مثل عبده أمين ، وإن يكن بصورة مختلفة تماما ، لكنها توضح ما أقول) .

عندما كان المعتقلون في سجن القلعة انتظارا لترحيلهم إلى سجن الواحات ، وجدوا بينهم شابا لا يعرفه أحد . صحيح أن كل معتقل كان يعرف عددا محدودا من المعتقلين معه ، لكن كان أصل كل منهم معروفا تماما ، من هو ولأي تنظيم ينتمي . حتى المستقلين كان سبب اعتقالهم وأمرهم معروفين تماما ، باستثناء هذا الشاب .

وكان الرأي الراجح اليوميين الأولين أنه دسيسة من المباحث العامة . لكن هذا الرأي لم يكن يتفق مع المنطق . فللمباحث العامة أعين بين الشيوعيين ، حتى وإن لم يكن زملاءهم يعرفون من هم على وجه التحديد ، فإن وجودهم لم يكن محل شك . فلماذا تضع المباحث العامة شخصا لابد أن يشك فيه الجميع من أول لحظة لأنه مجهول تماما ؟

وقال الشاب (الذي نسيت اسمه بكل أسف) إنه يهودي الديانة ، وأنه من أسرة فقيرة تقطن حي شبرا ، وأنه كان تلميذا في الثانوية العامة ، عندما أخبرته شقيقته التي تكبره بعام أن ضابط مباحث القسم المجاور لمنزلهم ، يعاكسها بصورة سمجة . وساء الشاب - الذي كان يلعب الملاكمة - أن يحدث ذلك ، فانتظر ضابط مباحث القسم وضربه . وتوعده الضابط بالعقاب ، فأصبح الشاب لا يسير إلا وسط زملائه في المدرسة وفي ممارسة الملاكمة .

ويبدو أن ضابط مباحث القسم لم يكن يريد الدخول في معركة صاخبة مع الشاب وزملائه ، وأنه كان يفكر في طريقة للانتقام ، فوجد الفرصة ملائمة عندما طلبت منه المباحث العامة قائمة

بأسماء الشيوعيين النشيطين في دائرة القسم . فوضع اسم الشاب على رأس القائمة . وهكذا - حسب روايته التي اتضحت صحتها فيما بعد - تم إلقاء القبض عليه وإرساله إلى معتقل القلعة . وأقسم الشاب بأنه لم يكن قد سمع عن الشيوعية إلا شنرات بسيطة ، وأنه لم يكن يتخيل ماذا يكون عليه " شكل " الشيوعيين ، ولا يعرف شيئا عن أفكارهم أو معتقداتهم .

وبعد مضي نحو شهر ، نادى عليه إدارة المعتقل طالبة منه أن يجمع متعلقاته لأنه سيتم الإفراج عنه . وابتسم الزملاء الذين كانوا يشكون أنه دسيسة المباحث قائلين إن مسئولى الأمن اكتشفوا أن لعبتهم لم تنطلي على المعتقلين ، فقررروا الإفراج عنه .

وبعد غياب استمر اسبوعا ، عاد الشاب إلى المعتقل مرة أخرى ، وقال إن اللواء حسن المصيلحي ، (وكان وقتها مفتشا لمباحث القاهرة قبل أن يصبح بعد ذلك مديرا للمباحث العامة) استقبله وأخبره بأنه عرف قصة ضابط مباحث القسم ، وأنه قرر نقله ضابط شرطة عادي في أحد أقسام أقاصي الصعيد عقابا له ، وأضاف أنه لم يفعل ذلك مرضاة للشباب ، وإنما لأن

ضابط المباحث الذي يخلط بين عمله وخلافاته الشخصية ،
سيهمل بلا شك عمله ، مما يتيح للشيوعيين الحقيقيين أن
يفلتوا من المراقبة . وبعد أن هناه بالإفراج ، أرسله إلى الضابط
" المكلف بإتمام إجراءات الإفراج " . وطلب منه هذا الضابط أن
يكتب استنكارا للشيوعية ، واتهما للشيوعيين بأنهم عملاء
وخونة . وأعرب الشاب عن دهشته ، وقال للضابط إنه لا
يعرف شيئا عن الشيوعية أو عن الشيوعيين ، وأنه لم يفعل
شيئا يستوجب إلقاء القبض عليه ، لذلك يجب إخلاء سبيله
بدون قيد أو شرط . وغضب الضابط . وأكد له أن " الشيوعيين
خونة وعملاء " وأنه يجب أن يصدقه ويكتب ما يمليه عليه .
ورد الشاب قائلا إن كل هذا لا يعنيه ، وأن المعتقلين الذين كان
وسطهم (إن كانوا شيوعيين) قد عاملوه معاملة حسنة ، وأنه
ليس من الشهامة أو الرجولة أن يتهمهم بالخيانة أو العمالة .
وهده الضابط بأنه سيعيده إلى المعتقل إذا رفض كتابة ما
يمليه عليه . لكن الشاب أصر على رفضه . ووضعوه في إحدى
الزنازين بالمباحث العامة ، وأعادوا الضغط عليه عدة مرات

لعله يعدل عن رأيه ، لكنه لم يفعل ، فأعادوه إلى المعتقل بعد أن يئسوا منه .

وقبل ترحيل المعتقلين إلى الواحات ، كرروا المحاولة معه مع تحذيره بأن الواحات ستكون مقبرة الشيوعيين ، فلن يخرج أحدهم منها حيا ، فهي مليئة بالعقارب والثعابين السامة ، ومن لم يمت بسبب السن ، فسيموت قطعاً بلدغة عقرب أو ثعبان . لكن الشاب لم يتزحزح عن موقفه ، وظل معتقلاً لمدة خمس سنوات . ولم يكن غريباً أن يخرج من السجن شيوعياً مناضلاً شديداً الإيمان .

فهذا إذن شاب لم يكن - عملياً - قد سمع عن الشيوعية ، ولم يكن في ذهنه يوماً أن يقوم بأي نشاط سياسي . لكن ، عندما وضعته الظروف في اختبار صعب ، أثبت أنه شاب مصري عادي ، يتمتع بالشهامة والرجولة ويتحمل المسؤولية ، ولم تلن عزيمته أمام هذه الظروف .

وعلى الجانب الآخر ، استسلم عدد من الزملاء الذين كانوا شيوعيين مقتنعين بالفعل ، لضغوط أجهزة الأمن ، وكتبوا ما

ألمي عليهم ، بل وعملوا جواسيس على زملائهم . وأذكر مثلا لزميل مشهور حتى الآن ، اكتشف أحد الضباط يوما أنه يصيبه بالرعب إذا رأى فارا ، فاخترق له سببا ، ووضع في زنزانه " التأديب " ، وقطع الإضاءة عن الزنزانه بعد أن وضع فيها فأرا . وأخذ " الزميل المناضل " يبكي ويتوسل أن يخرجوه من هذه الزنزانه ، إلى أن وافق على أن يصبح جاسوساً للمباحث على زملائه .

أذكر أيضا أنه قد ضبط ثلاث حالات من الشذوذ الجنسي (في حدود علمي ، فقد كان يتم التكتم عليها) . وقد قد " الزملاء " الذين اشتركوا في هذه العمليات إلى مجالس تأديبية ، وتم فصلهم من التنظيمات الذين كانوا ينتمون إليها . ولكن ، إحقاقا للحق ، فإن أحدا منهم لم يستنكر ولم يتصل بالمباحث ، وإن توقفوا تماما عن أي نشاط سياسي فيما بعد .

والحقيقة أن الجنس كان يشكل مشكلة حقيقية . وكان الزملاء الأطباء ينصحون المعتقلين والمسجونين بممارسة العادة السرية مرة كل شهر على الأقل ، حفاظا على توازنهم النفسي والعصبي .

وهذه المناسبة ، نشير على أن غياب المرأة كان يسبب بالنسبة للمسجونين والمعتقلين حالة من الجفاف النفسي والعاطفي ، من الصعب تجاوزها . لكن هذه المشكلة لم يكن من الممكن إيجاد حل لها . كذلك كان اعتياد أعين المسجونين والمعتقلين على رؤية لون الصحراء الأصفر . ولون ملابس السجن البيضاء والزرقاء فقط ، يجعل الألوان الأخرى بالنسبة لهم مجرد ذكرى بعيدة ، وكانت رؤية ألوان أخرى تكاد تصيهم بالدوار . نفس الشيء بالنسبة للروائح . وكانت صابونة معطرة تحدث بهجة شديدة ، ويشعر برائحتها الزملاء من مسافات طويلة .

وربما كان عدم ممارسة الجنس هو أحد الأسباب التي أدت بعدد بسيد من الزملاء إلى أن يصابوا باهتزاز عصبي حاد ، فأصبحوا مرضى نفسيين وعصبيين .

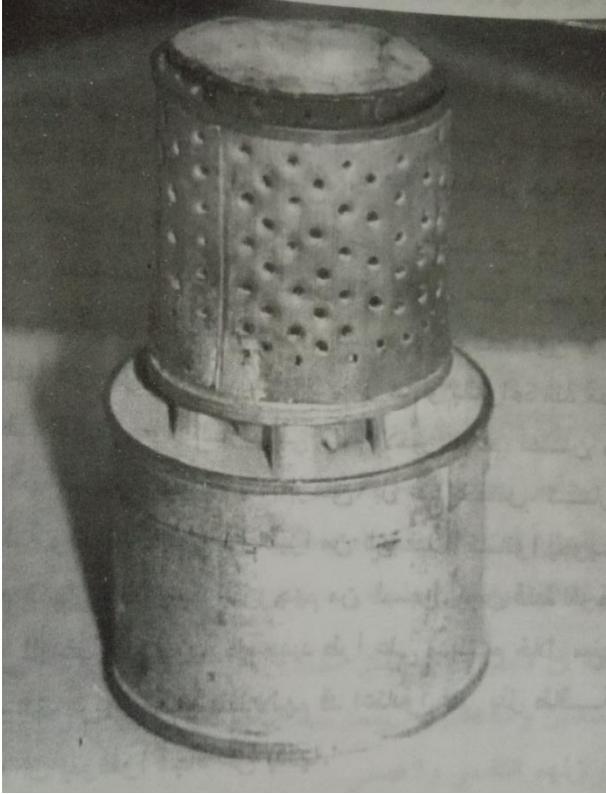
وهكذا ، فلم يكن الشيوعيون " طرازا خاصا " من الأشخاص ، وإنما الظروف هي التي دفعتهم إلى محاولة إيجاد الحلول المتاحة حتى لا تصبح حياتهم في السجن جحيما لا يطاق ، أو على الأقل فترة صعبة تسقط من حياتهم بلا مقابل .

ولست أعتبر من قبيل المبالغة أن أزعّم - بعد عرض أوجه النشاط المختلفة - أن الساعات الأربع والعشرين التي يتكون منها اليوم كانت تكفي بالكاد ، للقيام بكل ألوان النشاط التي كان المسجونون والمعتقلون يقومون بها في سجن الواحات . كان الواحد منهم منشغلا بعمل ما أو بالقراءة منذ مطلع النهار حتى يرقد على " البرش " (أو السرير في العام الأخير) لينام ، لكن هذا النشاط المتعدد الجوانب لم يكن يصيهم بأي إرهاق ، بل على العكس ، كان يزيد من طاقاتهم الذهنية والبدنية ، حتى أن كثيرا من الزملاء كانوا يجوبون شوارع القاهرة معظم النهار والليل بعد خروجهم من السجن ، ليس فقط لفرحتهم بحريتهم المستعادة ، أو للرجبة في رؤية كل جديد طرأ على مدينتهم خلال سنوات سجنهم التي تجاوزت الخمس . وإنما أيضا لأنهم اعتادوا على بذل طاقة ، كان من الصعب عليهم أن يتوقفوا فجأة عن بذلها .

وكان هذا النشاط المبدول هو السبب في أن غالبيتهم العظمي استطاعت أن تحتفظ ، بل وأن تنمي قدراتها الفكرية والعضلية

، وأن تصقل تجاربها في الحياة ، وأن تعلمها خبرات جديدة تضاف إلى خبراتها السابقة .

وهكذا ، فقد كان لينين على حق تماما عندما قال إن السجن مدرسة الثوار ، كما اكتشفت بعد هذه التجربة ، لكن من الصعب على من لم يدخل السجن أن يدرك ذلك .



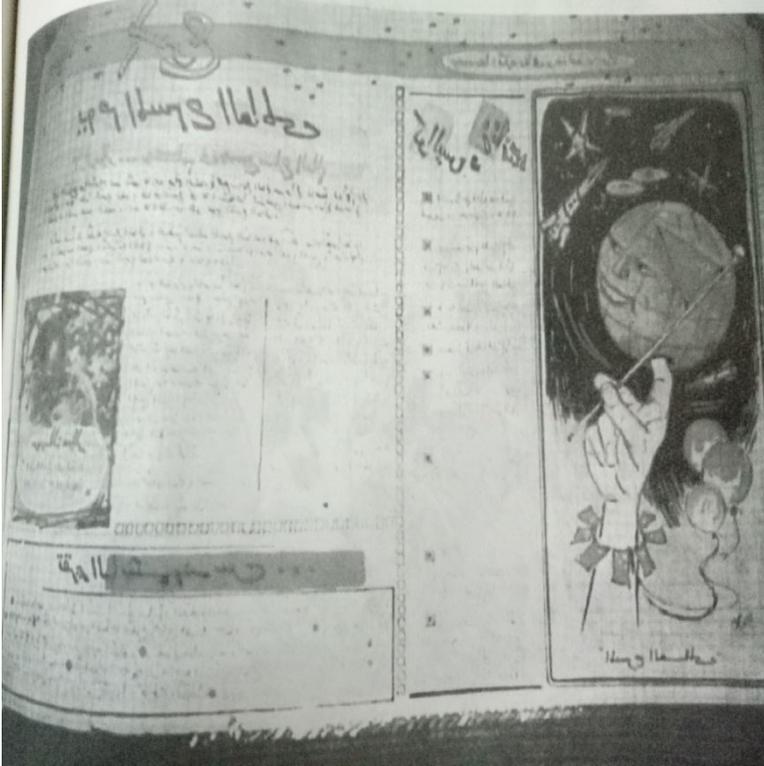
" التَّوْتُوُ " في آخر مراحل تطوره . وكان المسجونون والمعتقلون
يقومون بطهي طعامهم على ناره



رسائل على ورق البفرة كان يتم تهريبها من السجن ، وكتيبات
على ورق البفرة أيضا كان يتم تجليدها برسوم جميلة



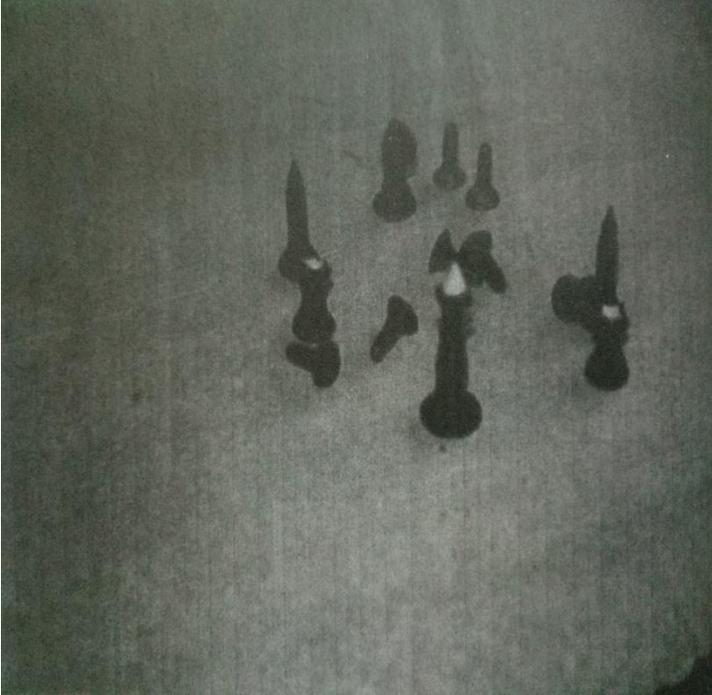
عدد آخر من مجلة المسرح بعد تطورها



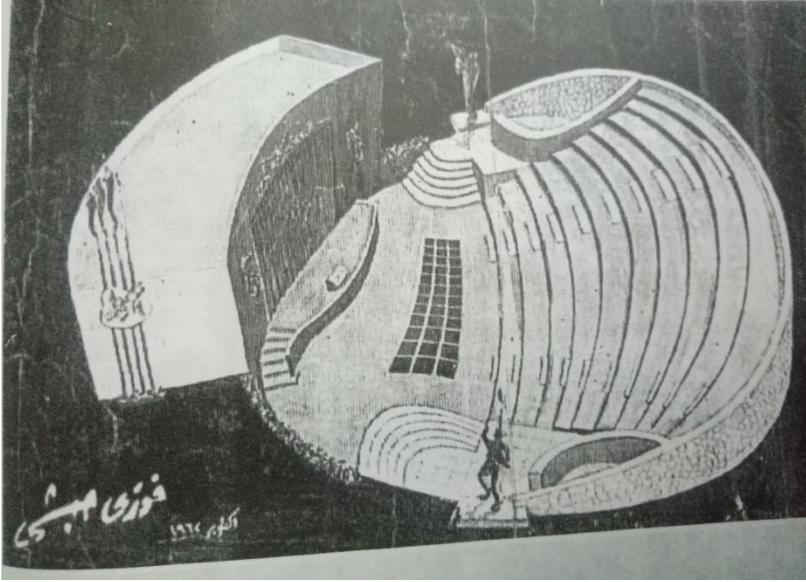
مجلة المسرح التي فكر في إعدادها وإصدارها الفنان حسن فؤاد
أثناء ضرب الطوب للبناء المسرح



كارت معايدة بمناسبة عيد زواج رسمه مجدي نجيب



قطع شطرنج سوداء ، كانت تصنع من لباب الخبز بعد خلطه
برماد ورق محروق



مسرح سجن الواحات الخارجة كما رسمه المهندس فوزي حبشي ، وكما تم تنفيذه مع بعض التعديلات الطفيفة جداً